الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.
مكتبة مدبولي
Madbouly Bookshop
منشورات الاختلاف

بشير مفتي

خرائط لشهوة الليل

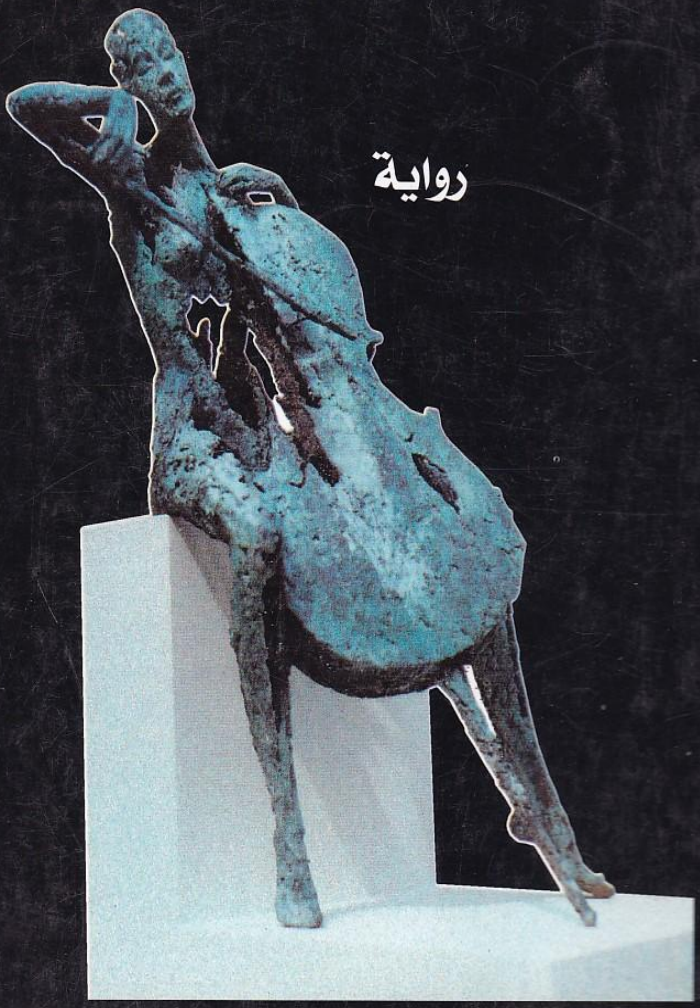

رواية

خرائط لشهوة الليل

خرائط لشهوة الليل

رواية

بشير مفتي

الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل
Arab Scientific Publishers, Inc. S.A.L

منشورات الاختلاف

يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأي وسيلة تصويرية أو إلكترونية أو ميكانيكية بما فيه التسجيل الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مقروءة أو أي وسيلة نشر أخرى بما فيها حفظ المعلومات، واسترجاعها من دون إذن خطي من الناشر

الطبعة الأولى
1429هـ - 2008م

ردمك 978-9953-87-292-6

جميع الحقوق محفوظة للناشرين

منشورات الاختلاف

14 شارع جلول مشدل
الجزائر العاصمة - الجزائر
e-mail: revueikhtilef@hotmail.com

الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل
Arab Scientific Publishers, Inc. SAL
عين التينة، شارع المفتي توفيق خالد، بناية الريم
هاتف: 786233 ـ 785108 ـ 785107 (1-961+)
ص.ب: 5574 ـ 13 شوران - بيروت 2050-1102 - لبنان
فاكس: 786230 (1-961+) - البريد الالكتروني: bachar@asp.com.lb
الموقع على شبكة الإنترنت: http://www.asp.com.lb

إن الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي الناشرين

التنضيد وفرز الألوان: أبجد غرافيكس، بيروت - هاتف 785107 (9611+)
الطباعة: مطابع الدار العربية للعلوم، بيروت - هاتف 786233 (9611+)

شُكْرٌ

يتقدم كاتب هذه الرواية بالشكر الجزيل
للصديق الروائي نبيل سليمان
على قراءة هذا النص وهو مخطوط
وعلى ملاحظاته الثمينة ومراجعاته الدقيقة.

«ما كان يجب أن أجسّده بالكلمات
كان يجب تدوينه بالدم»

هنري ميللر

(1)

لماذا تسمح لي أيها الروائي بأن أحكي على لساني الخاص هذه الرواية؟

كنت أفضل لو سردها آخر ممن عاشوها أيضاً، فقد يكون مثرياً جداً لعملك هذا لو استمع القراء لأبطالك الآخرين لكنك فضلتني أنا.

تساءلت فجأة والحكاية ترتسم في رأسي وتدور، تبدأ من نقطة وتصل لأخرى: ماذا كانت ستكون الحكاية لو رويت على لسان حبيب منيرة الغالي عزيز السبع؟ أو الكومندان مسعود، أو منيرة ستكون روايتك ثرية جدا لو تعمدت أن تكون ديمقراطياً فتترك لكل صوت يحكي قصته، لكنك أخبرتني بأنني سأكون وحدي في هذه المتاهة، وأنني كما قلت بصوتك الهامس تقريباً «ستتربعين على عرش الرواية من الأول للأخير».

ها أنا أتربع على عرش روايتك من الأول للأخير.

أتربع وأتساءل ما معنى أن أحكي الأمور من زاويتي الخاصة. لقد تركتني أجوب أروقة روحي، وسراديب ذاكرتي، وهيأتني لكي أدخل إلى القصة الآن بغير رغبة حقيقية مني، لكن بما أنك طلبت مني ذلك، أو بما أنك حشرتني في داخلها، لم يعد مهماً أن أشرح كيف قبلت، أو كيف قبلت دون قدرة على الرفض، أو كيف قبلت لأنني في جزء ما مني أرغب في أن يكون لي صوت، صوت يحكي ما يحكيه، ويقول ما يقوله، ثم لا يهم بعدها ما

سيحدث. هل ما سيحدث حقاً هو المهم؟، أي صوت سيتكلم في روايتك أيها الروائي لا بد أن يبدأ من الماضي، من ماضيه الخاص، لا بد أن يعود إلى شيء ما دفين فيه، إلى لحظة ما قديمة بحيث أنه سيحفر فيها إلى أبعد مدى، وسيحاول التوقف عندها طويلا، أو في قليل من الوقت، بحسب مقتضيات حكايته/ حكايتك، فهي البذرة الأولى التي تولد منها الأشياء، وتتفرع الحكايات، وتصبح كلها قابلة للقطف أو الحكي أو الموت.

أما أنا فلا أعرف كيف أبدأ. أتصور أنك تركت لي هوامش كثيرة من الحرية، وأظن أنك بشكل ما تريدني أن أغوص في ماضي الخاص والسري، الذي لا تعرف عنه حتى الآن إلا شذرات قصيرة ومتقطعة، وتود من صميم قلبك أن أفعل أكثر من هذا، فأتجرد من لغزيتي التي تتصورها فيّ أيها الروائي، والتي تعمدتها حقاً خلال علاقتي المتذبذبة بعدد من شخصيات هذه الرواية، وأن أفصح عمن أكون. لست أدري إن كنت سأخيبك في نهاية المطاف، وقد أعمد لذلك كما قد لا أفعل غير حكي ما كانت عليه حياتي من قبل، وكيف وصلت إلى هذا الطريق المسدود.

تصورت أنني سأعود إلى الوراء كثيراً، ولكن قد تتشعب القصة فلا أتحكم في زمام أمرها، ولهذا سأقفز على بعض المحطات معلنة أنها مهمة لو كان هناك وقت كاف لسردها، لكني أشعر أني لا أملك هذا الوقت، وبالرغم من ذلك لا يمكنني أن أتجاوز يوم عيدي ميلادي مثلاً، عندما أحضر لي والدي دمية تتحدث أو تصدر أصواتاً تشبه الكلام، دمية كانت بحجمي ولم أستطع بالرغم من كل سعادتي بالهدية أن أفرح بها كثيراً، فلقد ظلت ترعبني وأنا

صغيرة، ربما كان شكلها الإنساني الغريب يثير فيّ رعباً لا حدود له. والدي كان يعمل في إحدى البواخر التجارية الكبيرة، وكان يغيب طويلا ويعود بهدايا وحكايات كثيرة. أمي كانت مديرة ثانوية، امرأة صارمة ومتحررة بعض الشيء، تعارفا في الباخرة، هذا ما قاله والدي لي، في إحدى الرحلات من الجزائر لمارسيلسا:

«أمك كانت رائعة الجمال، وشعرت بأنها تدعوني لأقول لها: أحبك. كانت رحلتها الأولى إلى الخارج، وهكذا أسعدها أن تلقى شخصاً يعرفها بالبحر، ويساعدها على تجاوز عتبة السفر لأول مرة. أحببتها من أول نظرة، قبل أن تقول أي شيء. أمك كانت هديتي من السماء».

أبي هكذا يحكي بسرعة واقتضاب، يفضل الوصول للهدف على تزويق الكلام، عكس أمي التي كانت مختلفة، كنت أشعر أنها من نوع آخر، قلت من قبل إنها كانت صارمة، وقد أضيف: حديدية، لم أكن أفهم سر تعاملها مع والدي بطريقة متعالية، كانت تحسب نفسها مثقفة أكثر منه، متعلمة أكثر، بينما كان هو يتفاخر بتجربته في الحياة، بعلاقاته الإنسانية العميقة مع سكان كل ضواحي المتوسط، كنت لا أمل من سماع حكاياته عن الإيطاليين والفرنسيين والأسبان واليونانيين، كان متواضعا وقد علمه البحر والسفر أروع الخصال جمالاً: الكرم والتصالح مع الذات وحب الآخرين، كانت حياتي في كنف عائلة مثل عائلتي ستكون من أسعد الحيوات التي يطمح لها أي طفل، غير أن حادثة واحدة قلبت الأرض على عقبها، بل زلزلتها وأخرجت سافلها لعاليها، حينما وصلتنا برقية تخبرنا أن والدي توفي بالبحر. بل إن البرقية

ذكرت السبب. كان يحاول أن ينقذ مسافراً من الغرق فغرق معه، كنت في التاسعة من عمري، وشعرت أن الدنيا كلها قد زلزلت، وأن القدر قد أساء لي فجأة. لم أفهم معنى القدر حتى اليوم، ولم أسامحه حتى اللحظة. لقد غدر بي وأنا صغيرة، ولم يرحمني في تلك السن التي كان كل ما سيريحني فيها هو الكثير من الحنان والرحمة.

وقفت والدتي معي في تلك المحنة وقوف الأبطال، بشجاعة وحنان وحزم، ساعدتني على تجاوز المحنة، وما إن قدرت بعد شهور وشهور على الخروج منها سالمة معافاة حتى صدمتني هي بدورها، صدمة لم أكن أتوقعها قط، حيث جاءت تنقل لي خبر زفافها من أستاذ يدرس بثانويتها، ولا أدري لماذا تصورت أن شيئاً كهذا يمكن أن يسعدني أو يثير في أي حبور. أذكر أنني صرخت في وجهها بكلمة لم أكن أفقه منها أي شيء «فاجرة خائنة.. خائنة» ورحت أكررها حتى نزلت عليَّ صفعتها الأولى فكتمت أنفاسي فجأة، ولا أدري أي يد رحيمة من السماء امتدت لي لحظتها فأنقذتني من موت محتم، من أنقذني ساعتها؟ لم تكن إلا يدها التي صفعتني بها، هي التي راحت تسرع بضربي على ظهري كي لا أموت، ولم أمت، لكن روحي تيبست، وشعرت بأنها طعنتني في الصميم.

تزوجت أمي بعد سبعة أشهر من وفاة والدي، ولا أدري كيف عرفت أنها كانت تحب ذلك الرجل من قبل أن يموت والدي، كانت تحبه، وتكتب له رسائل كثيرة، وجدتها مخبأة في صندوقها السري، وازداد حزني من جراء ذلك، وشعرت أن آلامي الروحية تتفاقم، حتى قررت الهرب من البيت، لكن كيف لفتاة في العاشرة

أن تهرب، وإلى أين؟

هنا تعرفت على منيرة وعلى عائلتها. كنا ندرس في نفس المدرسة، كان لها والدان رائعان، وكنت أغار من تلك العلاقة التي كانت تظهر لي مثالية بينها وبين والديها، كانا وقورين نبيلين، وشعرا بألمي وحزني الصامت. كانا يخففان عليَّ بكل الأشكال والطرق، فبدأت أشعر في كنفهما بنشوة الحياة من جديد، وأمي التي كانت فرحة بعشيقها الذي تزوجته تركتني أفعل ما أريد، بل كانت مطمئنة إلى أنني محتضنة من طرف عائلة منيرة الطيبة، وتشعر بأن عبئاً ما انزاح عنها. لعلها كانت تود التفرغ لعلاقتها برجلها الذي تحبه، أحسست أنها قد تكون رغبت في الانتقام من سنوات زواج من غير حب. وأنها عندما كانت شابة تزوجت والدي عطفاً على حبه فقط، أو لأنها رغبت في الزواج دون تفكير، ولم تعرف ملذات الحب المجنونة إلا في أحضان زوجها الثاني هذا.

كان زوجها رجلا في الثلاثين، يصغرها بأربع سنوات تقريباً. كان يقول عن نفسه إنه شاعر، وشاهدته يحضر كتباً كثيرة لبيتنا. لكني لم أشاهده ولا مرة واحدة يقرأ، كان يمارس الجنس بنهم معها، تقريباً مرتين في اليوم، كان ذلك يؤثر عليَّ، ومرات يثيرني، وكنت حينها أهرب لبيت منيرة، أجلس وألعب معها، وفي غالب الأحيان ننام في حجرة واحدة. أمي لا تسأل عني حتى لو غبت أسبوعاً، كانت تتركني على حريتي، وعندما تشاهدني أعود إلى البيت تبتسم لي، ولا تتحدث معي، وأفهم أن ابتسامتها كانت تحمل الكثير من الحب والحنان، كما لو أنها تريد إقناعي أنها تعيش سعادتها الحقيقية الآن، وأنني يجب أن افهم وأستوعب ذلك، وأن ما هي فيه لا يجب أن يساء فهمه، أو يؤول بنقص في

مشاعرها تجاهي. صغيرة كنت، ولم أكن لأفهم هذه الأشياء، لقد بدأت أتساءل عن معنى الحب الذي تكنه أمي لهذا الرجل؟ لماذا هي ذائبة فيه، مشتعلة في حضرته، مزهوة ومفتونة بوجوده في بيتها؟ أما هو فلم أكن لأفهم حينها طبيعة رؤيته للأشياء. كان يبدو مع ذلك فناناً، فمن حين لآخر يحضر آلة قيثار ويغني ويرقص ويطلب من أمي أن ترقص معه، غير أنه لم يكن يقترب مني قط، مرة فقط دق على باب غرفتي، ثم فتحه، فوجدني غارقة في قراءة إحدى القصص السحرية الطويلة التي كنت أتلذذ بقراءتها ليلاً قبل النوم، شاهدته يطل عليَّ ففزعت، وظهر عليَّ التشنج والخوف، فعاد وأغلق الباب دون أن يقول أي كلمة، ومن يومها لم يعد إلي، ولم يكرر مثل هذا الفعل.

منيرة كانت صديقتي الوحيدة في العمارة، نلعب معاً، وندرس معاً، ونأكل معاً، وحتى عندما قرر والداها السفر في أحد الأصياف إلى مدينة في غرب الجزائر، قررا اصطحابي معهما فوافقت والدتي، وقضيت عطلة من أجمل عطلي الصيفية بعد رحيل والدي.

* * *

كبرت في هذا العالم الصغير، والشاسع.

شعرت وأنا أبلغ السابعة عشرة أنني كبرت قبل وقتي بكثير. لم يكن ينقصني شيء بعينه، ولكن فهمت أن النقصان شيء جوهري في حياتي. وأنني سأعيش بهذا الشعور الجارح، الشعور المؤلم بأن هناك نقصاً ما في تكويني، في حياتي، في ذاكرتي، وفي قلبي وروحي.

كنت أترك هذه الأحاسيس لي، وأستبدلها بثقة عمياء في النفس، بروح مقاومة ومصرة على تحقيق منزلة مهمة في الحياة، وكنت أرغب في الانتقام، ولكن لم أكن أعرف ممن؟ ولكن كان انتقامي دائما يأتي من أولئك المقربين إلي، من أولئك الذين يُفترض أن لا أنتقم منهم، وأن أنعم بعلاقة طيبة معهم.

لعل تعويض النقص، والإحساس الجارح بفداحة الخسران الذي كان يأكلني عميقا من الداخل هو ما دفعني إلى أن أشعر بعملية الانحدار النفسي، أو أن أدرك أنني أعيش حالة من التوهان العقلي بحيث لا أحد كان بإمكانه أن يفهم سر هذا الانحدار الملوث والراغب في السقوط بأي طريقة، الراغب في التلويث الجماعي والكامل. لقد غدرت بي الحياة منذ البداية، ولا بد أن أغدر بحياتهم جميعاً، وإلا فلن يتحقق لي أي شعور حقيقي بمعنى عيشي، بمعنى أن أكون موجودة.

في السابعة عشرة أصبحت فتاة ذكية وجميلة، ولم أكن أصدق زميلاتي في الثانوية وهنّ يطنبن في شرح أناقتي ولمعان عيني العسليتين، وسحر شفتي المكتنزتين، وبياض بشرتي. كن يقلن لي «بسلامة عليها مارلين مونرو ونصف» وكنت مارلين مونرو نفسي، سأشع بضوئي على الجميع، وسأقتل بجمالي الصاعق كل من يقترب مني، كان الانتقام يسري بداخلي كرغبات قاتلة ومجنونة وهو ينبض في كامل شرايين جسمي. كنت أشعر به متلهفاً للانفكاك على كل من يجرؤ على الاقتراب مني، ولن أرحم ساعتها الطيبات العاقلات بنات العائلات المحترمات، واللواتي لا يفكرن إلا في خير العالم وصلاحه. كنت أقول وأردد: إنني الشر نفسه، وأعدكم بغضبي القاتل، بشري الناري، بوحشيتي الكاسرة.

أظنني كنت لاواعية وأنا أفعل ذلك، فأغري ذلك الشاب الوسيم عمار صديق منيرة، وعاشقها الولهان، فيخضع لي ويتركها باكية حزينة، وأنا أتلذذ.. هي تبكي وتشتكي لي قسوة الذكور الذين يغدرون، دون أن تعلم سري مع عمار، وأنّى لها ذلك، والشاب قد غرق حتى أذنيه في فتنتي وبهائي! لقد سقيته من جسدي ما يرويه وأكثر، ما يجعل عينيه تعميان عن الحب المثالي الذي طمح له مع منيرة، الحب الرومانسي المراهق الذي ما إن تمتحنه مع قوة الرغبات حتى يذبل ويتلاشى. كنت أتصرف بخبث وذكاء، وأحول نفسي إلى مركز للعالم، وأهم نقطة في الكون. كثيرا ما داهمتني أحاسيس من نوع الرأفة والشفقة، غير أنني كنت انزعها من روحي، ألقيها على الأرض ثم أدهسها بقدمي كما تدهس الحشرات الضارة، أو التي لا يمثل وجودها أو عدمه في ميزان الحياة أي شيء.

الحياة هكذا تسير، وبهذا اقتنعت، أو أقنعت نفسي، ورضيت بها طريقة لي في الاستمرار والعيش. وبعدما انتقمت من منيرة، وجردتها مما كانت تتعالى به عليَّ، رحت أفكر في الانتقام من شخص آخر، وكم كان سهلاً ذلك الانتقام! لكن تأثيره عليَّ كان غريباً، لقد جرحني في الصميم وكاد يدمرني حقاً لكنني أنجزته، كان سهلاً عليَّ حينها أن أنتقم من أمي، ولأول مرة لم يكن الأمر مجرد انتقام من ذلك الشعور الفادح بالنقص، ولكن كنت أشعر أنني أنتقم لوالدي، ولشيء ما لم أبرأ منه قط، لجرحه الذي بقي مفتوحاً فيّ وفيه.. كنت أتصور أنني بفعلتي تلك سأدفع عنه الألم، وربما أترك روحه تموت بداخلي بالفعل، وتعتق وتصعد للسماء مطمئنة وهانئة.

أي بشاعة أن يرتكب شخص شيئاً مثل الذي أقدمت عليه! ولكن كل شيء كان هيناً بداخلي. كنت أشعر بأنني مفطورة على نوع من الشر الخاص بمثلي من البشر، بشر لا يصنفهم العالم إلا في دائرة المنحرفين والمجرمين، لكنهم يبقون بشراً، بمنظور آخر مرتبط بسياق حياتهم، وظروف عيشهم وتطور تركيبتهم النفسية والمادية معاً.

طبعاً لم يكن أمر الانتقام من أمي صعباً. كانت لا تزال غارقة في حب زوجها الأستاذ الشاعر، ولكن كنت أشعر بنظراته الخاطفة التي تشي بغرامه المفجع، ولم يكن الأمر يحتاج إلا إلى إثارته وتهييج أعصابه ونيران شهوته. للأسف الشديد لم تلاحظ والدتي ما كان يحدث بيننا من خطابات سرية، ومحاورات خفية، وكان أقصى ما أهدف إليه هو دفعها إلى أن تدرك أن شيئاً ما يحدث، غير أني ورأفة بها، أو لما لا أعلم من شعور داهمني نحوها فجأة، رغبت في أن يبقى الأمر عند هذا الحد: أستثيره فيظهر جنونه بي، فتلاحظ هي ذلك، فتفعل شيئاً لإيقافه، تغضب فقط، تثور ثائرتها، وقد تطرده لأسبوع، أو لشهر من البيت، ثم تتصالح معه. تلك كانت عادتها عندما يصدر منه شيء قبيح لا تستسيغه، كما لو أنها تتعامل معه كطفل تعاقبه ببرودتها وصرامتها الحديدية، فإذا ما استشعر ذنبه أعادت له مفتاح الباب كي يدخل من جديد، لكنها لم تلاحظ، وكان عليَّ كي أنفذ خطتي الانتقامية كما يجب أن أذهب إلى أبعد من ذلك.

ماذا تصورت أو ظننت أنه سيحدث لها؟

لا أدري، فقط أنها ستكتشف بأن زوجها الحبيب يرقد مع ابنتها الوحيدة في الفراش عاريين، تغضب، تثور، تكسر بعض

أثاث البيت، تطرده، وقد تطردني معه، ثم تعود الحياة إلى مجراها الطبيعي.

كان ذلك هو السيناريو الكارثي الوحيد الذي رسخته في ذهني ساعتها كأقصى حد. لم أتصور قط أن الأمر سيكون أكثر لكنها ما أن دخلت الغرفة، ورأتنا على الحالة التي كنا عليها، حتى سقطت مغشياً عليها، سقطت تحتضر، أسرعت نحوها أصرخ وأبكي فسمعت تمتمتها الغريبة، سمعت نعتاً من نوع «بلهاء.. بلهاء» تتكرر بصوت ينخفض رويداً رويداً حتى أخذتها المنية إلى عالم آخر.

* * *

كان موت أمي نهاية لشيء ما، أو حقبة أردت لها أن تنتهي فجأة بذلك الشكل الفاجع، وخططت بكل خبث ودهاء كي تكون كذلك، غير أن الموت، الفقدان، أربك كل ما فيّ من وضوح وتبصر، وأيقظ فيّ آلاماً كبرى، وأحدث بروحي تشققات عنيفة شعرتها تشبه الطعنات التي يحدثها ضرب عنيف على جسد منهك بسكين مسوس.

شعرت ونحن ندفن أمي بأنني أدفن معها ماضياً كئيباً للغاية، وأنه عليَّ أن أبدأ مساراً جديداً في حياتي، انتقلت للجامعة ومرت سنواتها من دون طعم، كنت أنتقل من موسم دراسي لآخر دون أن أنتبه لأي شيء، الحياة كيف هي، والناس كيف تعيش، ولم أكن أتابع الأحداث، ولاما فيها من تقلبات سياسية في البلاد، بالنسبة لي كان الأمر سيئاً على كل حال، أما تغييره نحو هدف واضح وجميل فلم يكن قد ترسخ في ذهني بعد، ومع ذلك بقيت

علاقتي بمنيرة على أحسن حال. بعد تجربة حبها الأولى المجهضة لم تفقد تلك الفتاة رؤيتها المثالية للحياة. لقد عانت بعض الشيء، وتركت قلبها يصمت فجأة ويتفرغ لأشياء أخرى تصورتها مهمة، ولكن ما إن دخلت الجامعة حتى تعرفت على ذلك الشاب الطافح بالحيوية والروح المتحاورة، كما كانت تقول هي عنه، مصرة على أنه أعاد لها الثقة في الحب. قالت لي أشياء كثيرة عنه، وعن إيمانها هذه المرة بأنه الرجل الذي يناسبها بالفعل، وأرادت أن تعرفني به فرفضت قائلة بأن ما يهمني في النهاية أن تكون سعيدة معه، وفي قلبي تمنيت لها ذلك، راغبة في تكفير ذنبي معها لأول مرة، شعرت بأن انتقامي وعدوانيتي من الناس الذين يحبونني ليس لها مبرر، وأنه من الأفضل أن يوجه الإنسان طاقة الشر فيه ضد من يستحقونها حقاً، وليس ضد من يمكن نعتهم بالأبرياء المخلصين لقناعاتهم ووجودهم. كنت بالرغم مني أمقت هذا النوع في داخلي، أشعر نحوهم بالشفقة. أقول لهم إنهم يكذبون على أنفسهم قبل كل شيء، غير أن ثقتي في أمر كهذا لم تكن كاملة، كنت متذبذبة، ولربما لو حللت منيرة بشكل أفضل لقلت إنها فتاة سوية، وإنها بالرغم من تربيتها العالية، وخلقها الرفيع، ووجاهة عائلتها، وبالرغم من أنها البنت الوحيدة في البيت، إلا أنها لم تكن أنانية، ولا قليلة النضج، كانت ذكية جداً، ومتفتحة العقل، تستوعب أموراً لم أكن أنا قد دربت عقلي على فهمها، كانت تتحدث في السياسية مثلا بطلاقة وتمكن كبيرين، حتى أنني قلت لها مرارا مازحة:

- هل تحضرين نفسك لتكوني وزيرة مستقبلاً؟

فردت بأن ذلك لا يهمها كثيراً، ولكن معرفة ما يجري يجعلها

أكثر فهماً ووعياً.

غير أنني كنت مدركة أن معرفة الأحداث لن تكشف لي أي لغز فما يحركني من الداخل، وبالتأكيد لم تكن منيرة تعرف أي شيء عن معنى أن يكون الإنسان محكوما بالذهاب لشيء أسود فيه، مثلي تماماً.

«الشيء الأسود الذي يسكننا من الداخل» هذه العبارة يمكنها أن تكون محوراً لنقاشات فلسفية طويلة، لكن منيرة لم تكن من هذا الصنف الذي يتكلم في الماورائيات، في العالم الداخلي المتشعب للإنسان، في الروح وغموضها، والوجه وأقنعته، لا لم تكن صالحة لذلك، أو أظن أنه المجال الذي كنت فالحة فيه أكثر منها. وماذا أيضاً؟ الجنس؟ نعم، هذا أيضاً كنت بارعة فيه، بارعة ونهمة وأشعر أنه يخرس أصواتاً مجنونة بداخلي، يطفئ نيران غضبي، يخمد شيئاً قاتلا بروحي، كنت أمارسه بنزق وحرية، بجنون وطيش، غير أنه جنون أدرك معناه، وأفهم حدوده، كان مثل أقراص مهدئة تصلح لجعلي أرتاح في سريري على الأقل، وأنام منهكة من التعب الجسدي، لا غير.

لم أغادر البيت بعد وفاة أمي، وحتى هو، زوجها اللعين قرر البقاء، لكننا اتفقنا على أن يرسم كل شخص لنفسه حدوداً، وأن لا يقترب أحد من مساحة الآخر. لقد هزمته لحظة الفقدان تلك، وما عاد كما كان في السابق، لقد شعر بتأنيب ضميره، وغرق لشهور في العطالة وقراءة الكتب، ثم تحول بشكل عجيب تحولاً تاماً، حيث بدأ يصلي، ويقرأ القرآن، ويردد أدعية دينية ليلا قبل أن ينام، وفاجأني ذلك، بما أن لكل منا عالمه فلم أهتم. لقد دخلت الجامعة، وصرت طالبة محترمة في النهار، أما في الليل

فهو للسكر والعربدة والعيش الحر. كنت أحرص على أن يصرف عليَّ العشيق الذي أكون معه بلا حساب، وكانوا يفعلون ذلك ولم يتأخروا عندما تكون الفتاة التي يعاشرونها جميلة وجذابة وطالبة مثقفة وجنسية بالشكل الذي كنت عليه، من جانبي كنت أحرص على أن يكون العشيق غنياً نسبياً وفي تلك الفترة من نهاية الثمانينات كان الأغنياء كثراً، خرجوا من صمت الزمن الاشتراكي وراحوا يعلون حياة ترف ومجون وغبطة، والمال ينزل من السماء عليهم بلا حساب، يبذرون الأوراق النقدية بلا عدّ، وشيئاً فشيئاً كنت أكتشف عالمه هذا، أعرفه وأختبره، وأعرف فجأة أن أحلام منيرة السياسية التي بثتها جماعة من المثقفين الشباب الحالمين في الجامعة برأسها، لن تكون إلا أوهاماً ستسحقها قرارات هذا الواقع الجديد. هذا الواقع الذي صرتُ أعرفه جيداً وأفهم قوانينه ولعبه جيداً، ها هو الحاج منصور يخبرني بأنه حصل على عشر شقق من خلال رشوة رئيس بلدية سافل مثله، وأنه بعد عام سيبيعها مجدداً بأثمان خيالية، لكنه سيحتفظ لي بواحدة، وسيوقع عقد بيعها لي في بار «الشمس» من دون أن أدفع إلا قبلتين قصيرتين على شفتيه المشقوقتين الذابلتين. لقد كنت أعرف كيف أتعامل مع هؤلاء الكلاب المسعورة، أحياناً يعطوننا هم تلك القدرة على جعلهم يشحذون منا قبلاً فقط، أما الجنس فلا أدري ماذا كان سيدفع من أجله، ولقد حاول الحاج منصور ذلك معي، بعد أن طال زمن الوعود بأن نقضي ليلة في إحدى فيلاته الكثيرة على البحر؟، طال زمن الوعود حتى أنه بدأ يسمم حياتي بطلباته، وأحياناً بلغ به الأمر حدّ تهديدي، غير أن صاحب البار حسان أرشدني للحل، وعرفني على الكومندان مسعود، وبالفعل ما أن

تعرفت على ذلك الشخص حتى تغير الحال تماماً، جلست معه، وقال لي مبتسماً:

- أنا في الخدمة.

وفهمت بسرعة أنه كان يملك عقلاً كبيراً، ويزن كل شيء بنظراته، يدقق ويفهم المطلوب، يفهمه من لمحة واحدة، من دون كلام، وفهم حينها أنني أرغب في الظهور معه، فعزمني على الشرب، وما إن دخل الحاج منصور ورآني بصحبته حتى خسئ في مكانه وتراجع، ثم لم يعد يكلمني قط، بل أبلغني رسالة مع صاحب البار حسان، يقول لي فيها «أنه يطلب مني أن أسامحه، وأنه حلال عليَّ عقد البيت الذي أخذته من دون مقابل» وفهمت الدرس جيداً.

في الصباح عندما كنت أذهب للجامعة، وألتقي بأولئك الطلبة الشبان والذي كان من المفروض أن أكون مثلهم، كنت أشعر بأمرين متناقضين بداخلي، الرغبة بأن أكون مثلهم بسيطة بلا هذه التعقيدات، وبأن أبصق في وجوههم وأصرخ «استيقظوا يا أطفال فالعالم لا يسير هكذا». وأجبرت نفسي على القبول بعالمين لي، عالم النهار وعالم الليل. بل حتى عندما جاءتني منيرة ببيان تندد فيه باعتقال عدد من الطلبة إثر مظاهرات تطالب بالديمقراطية وجدتني أوقع معها، وكانت فرحة ومزهوة كما لو أنها ستغير العالم برمته من خلال توقيعات ستحشر أسماءنا في خانة المغضوب عليهم.

فعلتها دون تفكير ومن دون أي رغبة في تخليص ضميري من معاناتي تلك، فعلت، وأنا اشعر بأن جزءاً مني يقبل أن يكون مثالياً وحالماً بعض الشيء، وأن الإنسان ليس مجبراً دوماً على أن

يسير في طريق «الشيء الأسود الذي فيه».

كنت أحضر في الجامعة حتى النشاطات الأدبية، ولقاءات الطلبة التي تحدث في نهاية الأسبوع، كنت مثلهم تقريباً أعشق الفن، وأحب الأدب وقراءة الروايات، وأريد التحدث في عالم الخيال وسحر الحكايات العجيبة، وشاهدت صديق منيرة أكثر من مرة. كان بارعاً في الإلقاء والتحدث عن بعض الكتاب، لكنه بدا لي من طينتها هي، ذكي وناضج وحالم فوق اللازم، ويتصور أن مبادئه ستحميه من أن يسقط في يوم من الأيام.

حسدته، وحسدت منيرة، وغضبت من نفسي، وقلت أشياء بغيضة لها، ولكني بقيت مصرة على أن لهم عالمهم، ولي عالمي. وأن ما يفرقنا أكثر مما يجمعنا، وأنها الحياة تفعل بنا ما تريد.

* * *

ما الذي كانت تريده مني الحياة؟ وما الذي كنت أريده منها؟

في السنة الرابعة من دراستي الجامعية واجهت هذا النوع من الأسئلة، وبقيت أردد في داخلي أنني من طينة مختلفة، وأنه سواء أرغبت أو لم أرغب في ذلك، فأنا هكذا، ولكن هكذا ماذا كان يعني؟ في أعماقي لم أكن راضية على هذه الحياة، ولكن وجدتني مقتنعة، ليس تمام الاقتناع، فالأمر سيئ في النهاية، بمعنى أنني حتى لو بررت ما فعلت فلن يقبل أي شخص منطقي هذا، ولا أنا سيقنعني أمر بهذا الحجم من الخطورة.

لم أتصور أن علاقتي بالكومندان مسعود ستأخذ حجماً أكبر مما تصورته، فالرجل لم يكن فقط عطوفا ومتواضعا معي، وحتى خدوماً في بعض الأمور لكنه لم يكن يرغب قط في لمسي، أو

حتى إظهار أنه راغب في، وربما ما زاد ذاك من قلقي وارتباكي معه، فأن يكون هناك مقابل فذلك كان سيريحني، وكنت ألمح لهذا معه، ولم أفهم كيف أنه يردني عنه بشيء من التعفف الغريب، والذي ما تصورته سيصدر من ضابط عسكري في حجمه، تركت الأمر للمستقبل، وقلت ربما سأفهم لاحقاً ما يريده مني، وبخاصة أنه كان يقول لي:

- متعي نفسك بما ترغبين فيه، فأنا هنا لحمايتك لا غير.

«حمايتي» تلك الكلمة التي كنت أشعر بها حقاً، وصرت من فرط ما كنت أشعر بها أتجنب حتى البار الذي يشرب فيه، فالكل يعرفه، ويهابه، ويحسبون له ألف حساب، بل كنت أسمعهم أحياناً يرددون كلمات في شأني «إنها صاحبة المعلم»، وبقيت وساوسي تكبر، شعرت بأن مفهومه للحماية أكبر من عبارة واحدة لها دلالة فهم واحدة، وأنه يقصد حجم قدرته على التحكم في، وبدأت أختنق من شيء كهذا، وأرتعب. حتى تلك اللحظة لم يخطر ببالي الرعب قط، ربما لأنني لم أكن أنتظر أي شيء من الحياة، حتى أن فكرة أن أموت، أو أُقتل كانت شيئاً أنتظره بحفاوة وسعادة كبيرتين، بل ربما كان تحدي للخطر، عيشي في مستنقعات كهذه معناه أنني أود لو أذهب للهلاك مفتوحة العينين ومبتسمة الوجه. وقررت بيني وبين نفسي أن أبتعد عن بار الشمس، والكومندان مسعود، أن ألتصق بالجامعة والدراسة والبيت، قررت أن التجأ للعالم الأكثر طمأنينة، والذي بالرغم من أنفي كنت أشعر فيه بسعادة خفية، بلذة لها طعم مختلف، ومذاق غريب.

هنا جاءني شخص وطلبني بالبيت:

- أنت ليليا عياش؟

قلت:

- نعم أنا هي ليليا عياش.

- الكومندان ينتظرك في مكتبه.

استغربت الطلب، ومكان الموعد: مكتبه، وقلت في نفسي ماذا يريد مني هذا الحقير الذي يرغب الآن بعد اختفائي عنه كل هذه المدة أن أدفع الفاتورة؟ ماذا يريد؟ بقي السؤال يمزقني لألف قطعة ويرميني للشمس عارية ومتسخة.

سمع زوج أمي ما دار من كلام قصير بيني وبين ذلك الرجل النحيل والحاد النظرات، فجاء يستطلع الأمر:

- ماذا يحدث هنا؟

فصفعته بواحدة من نظراتي الغاضبة لكي يبقى في مكانه، لكنه لم يأبه، وراح يسأل الرجل من جديد:

- من هذا الكومندان الذي يرغب في لقائها؟

لم ينبس الرجل بأي حرف بقيت نظرته موجهة لي فأومأت له بأنني سأنزل فوراً.

كان زوج أمي قد تغير أيامها، وصار متديناً، لكن بقيت علاقته معي صامتة، لكأننا غير موجودين في بيت واحد، لكن لا أعرف كيف تدخل حينها، ربما اسم الكومندان أرعبه، ربما شعر بشيء خطير سيحدث لي، ربما فوجئ بأن شيطنتي لم تكن شيطنة فتاة صغيرة ولكن امرأة تلعب في حلبة الكبار جداً.

حاول بكل الطرق أن يعرف ماذا أفعل؟ ماذا يحدث؟ ماذا يجري في السر؟ حاول وهو يسأل بطيبة ولطف لم أعهدهما فيه، بل تجرأ وقال:

- أنت مثل بنتي يا ليليا.

وهنا تفجر غضبي، ورحت أشتمه، وأصفعه بالكلمات القبيحة فتراجع للوراء، ورأيته يبكي وأنا أصفق الباب من خلفي.

* * *

أخيراً ظهر الكومندان مسعود لي على صورته الحقيقية، وهو يرتدي بزته العسكرية، ويطلب مني أن أجلس في المكان الذي يقابل مكتبه.

سلمت عليه وسألته حتى أوفر عليه وقت الترحيب المبالغ فيه:

- ماذا هناك؟

- لم نعد نراك كثيراً.

- مشغولة بالدراسة وأشياء أخرى.

- نعم أعرف بأنك فتاة مختلفة عن بنات الليل.

ولم يكمل جملته تلك، وأخرج دفتراً وأوراقاً من ملفات كان يضعها فوق مكتبه، وتشاغل بها بعض الوقت، ثم رفع نظره ناحيتي كما لو أنه تذكر وجودي، ثم دخل في الموضوع مباشرة:

- أنت تعرفين معزتك عندي.

لم أعلق، فهمت مرماه جيداً، بدل معزتي كان يمكنه أن يقول «لك دين عندي، وها هو وقت دفعه قد حان». كان الأمر سيكون أحسن لو عرف التعبير مباشرة عن رغباته. ولكني قلت مثله متحايلة:

- نعم أعرف.

- أنت تعرفين بأن البلد يشهد تغيرات جذرية، وكل شيء يتبدل، وأن وظيفتي هنا هي لحماية البلد من أي ضرر داخلي أو

خارجي.

في قلبي بدأت أتوجع، وبدأت تغمض عليَّ الحقائق والتفسيرات، وفهمت دون أن أفهم، خفت فجأة، بل ارتعبت، عالمهم وعالمي، حتى مع هؤلاء يوجد عالمان. واحد لهم يعرفونه جيداً. وواحد لي بالكاد أكتشفه الآن.

أردت أن يدخل مباشرة في الطلب وقلت مصارحة إياه:

- لا أعرف ماذا يحدث في البلد حقاً، ولكن هل تطلب مني شيئاً أفعله.

- شيء بسيط للغاية.

- من مثل ماذا؟

- أنا أثق فيك، في إخلاصك لهذا البلد.

كانت الكلمة أكبر من أن أستوعبها حقاً، «البلد» رددتها عدة مرات في رأسي، وتساءلت أي بلد يقصد؟ لم أكن مهتمة بما يحدث، منيرة وجماعة الطلاب الحالمين نعم، أستاذ الفلسفة ربما، الذي يحكي عن غرامشي كنبي جديد، ولكن لم يستهوني قط عالم السياسية والنضال هذا، فلماذا يتحدث لي عن هذه الأشياء الآن؟ شعرت بصغري فجأة، بقلة زادي وحيلتي، وانتظرت أن يخرج مطالبه بسرعة، فلم أعد أطيق الانتظار.

- هؤلاء الطلبة الذين تعرفينهم واحداً واحداً على ما نحن متأكدون منه ينشطون كثيراً في الجامعة ويسببون لنا مشاكل كبيرة ولكن لا نعتبرهم خطراً على أمن البلد، كل ما هنالك أننا نشك أن وراءهم أشخاصاً خطرين، نريدك أن تخبرينا بكل ما يحدث في اجتماعاتهم، أنت تملكين المؤهلات الكافية لتكوني جزءاً من خلاياهم الصغيرة، يجب أن تقتنعي بأن ذلك سيكون لصالح

استقرار البلد وأمنه.

وتركني أذهب بعد أن وافقت. خرجت من مكتبه مرتبكة وشبه منهارة، تصورت أي شيء إلا هذا، إلا أن أكون في النهاية جاسوسة، وعلى من؟ زملائي في الجامعة. أولئك الطلبة الحالمون، كيف يفكر بأنهم خطر على استقرار البلد وأمنه؟ من أين جاءته هذه الفكرة الشريرة، من أين؟

* * *

لم يكن بوسعي إلا أن افعل ما طلبه مني.

فعلت بلا إرادة، أو فعلت كمن ينتقم من نفسه هذه المرة، بدأت أحضر نشاطاتهم وتجمعاتهم وأنقل أخبارهم وحركاتهم وأعرف ما يدور في الظاهر والمختفي، وشرعت أكتب تقاريري في نهاية كل أسبوع، أرسله للكومندان مسعود، الذي كان يهنئني أحياناً بالهاتف أو يعزمني على عشاء في مطعم فاخر، وهو في كل لقاء يجمعني به، يصر على تذكيري بأن ما أقوم به ليس إلا في خدمة البلد، ومصالحه العليا، تلك التي لم يكن عقلي يسمح لي بأن أفهمها جيداً، غير أنه طمأنني على أن لا أحد سيتعرض لهؤلاء الطلبة، وأنهم يبحثون عن رأس الخيط، ولهذا كنت مرتاحة، وكنت أشعر بأنني لن أسبب لهم أي مشاكل هم في غنى عنها، أولئك الطلبة الذين كانوا يظهرون لي بسطاء من عائلات فقيرة ومحرومة، وغالبيتهم من الأرياف إلا قلة قليلة من أبناء المدينة، حيث جاءوا للتعلم فقط في الجامعة، ثم تستدرجهم الأحلام الطوباوية التي تتساوق مع سنهم لخوض معارك سياسية من هذا النوع. كانت نهاية الثمانينات تبدو لي بحراً من المآزق

العنيفة، وكنت أشعر بأني صرت طرفاً فيها، أو جزءاً من مأساتها بالفعل، فمن دنيا لدنيا أخرى انتقلت هكذا بلا إرادة حقيقية مني لأخوض صراعاً سياسياً لم أكن أشعر بأن لي ناقة فيه أو جملاً، غير أنني ارتبطت الآن بهذا الكومندان الذي لم اسأل قط ما هي مكانته بالفعل، ما هو دوره في توازنات البلد؟ ولمن ينتمي حقاً؟ وهل يمكنني الثقة فيه؟ الثقة لم أشعر بها حقاً، أو ربما شعرت بأن لا شأن للثقة في علاقتي به، صحيح أن مكافآته كانت مهمة، حتى أنني طلبت مرة أسبوعاً للراحة في مدينة على ضفاف المتوسط، فلبى طلبي بسرعة البرق، وجاءتني التأشيرة من تلك الدولة الأجنبية بسرعة غريبة، وكان شيء كهذا كافياً ليرضي لذة باطنية في التنعم بالحياة، فالمقابل رغم ما قد يبدو عليه من بشاعة لم يكن فادحاً حقاً، ثم يمكن الاقتناع بغباء وسهولة أن الأمر يخص مصلحة البلد بالفعل، وأن الكومندان مسعود رجل في خدمة الدولة، والدليل أنه لم يتعرض قط لي كرجل مثل باقي الرجال، لقد تركني أفعل ما أريد، واحترم نمط حياتي التي أنا عليها، ولم يشعرني بأنني ناقصة أو سيئة، ولم يحاكمني على أي شيء قمت به، وقلت في نفسي: بماذا أرغب غير أن أعيش حياتي على هواي ووفق منطقي الخاص وبحرية كبيرة وغير مشروطة؟

ربما كانت الأمور ستستمر على هذا الحال لو لم يحدث ذلك الذي حدث. تلك الانفجارات التي هزت الجزائر العاصمة فجأة، والتي قادها شباب عاطل عن العمل وطلبة ثوريون حالمون، وانتشرت في لمح البصر كالنار في الهشيم. كان عام 88 هو عام الخروج والتمرد، حيث تقلبت الأوضاع على عاقبيها، وسقطت

الشعارات البراقة، تعطلت الحياة، وتوقف العالم، وتوقفت عن الحركة بدوري، لزمت بيتي مغلقة على نفسي الأبواب والنوافذ، أما زوج أمي فلقد كان يشارك في تلك التظاهرات، ومرة عاد مكسور الذراعين وهو يصرخ «هذا ما يعرفونه أبناء الكلب، الضرب والقتل والتعذيب». لم أتدخل فيما حدث له، ولم أشاركه فيما كان يبدو أنه طريقه الذي عثر عليه بعد طول توهان وتعثر. بقيت في البيت، وعندما هدأت العاصفة وتوقف النزيف، عدت للجامعة أستطلع الأمر، أنظر وأبصر وأتأمل، فلم أجد زملائي في الخلية الصغيرة للمناضلين الأحرار، وسمعت من زميلتي منيرة أنهم اعتقلوا وعذبوا، قالتها والدموع تسيل من عينيها، فسألتها إن كان حبيبها من ضمن المعتقلين فنفت، وصارحتني بأنها استغربت من أن يعتقل الجميع إلا نحن الثلاثة، ولم تكن تعرف طبعاً بأنني لم أذكرهم قط في تقاريري، ولم أشر لحضورهم تلك الجلسات السرية، لماذا فعلت ذلك؟ لم أكن أعرف عنه الشيء الكثير، حبيب قلبها ذاك، وكان يبدوا لي شاباً متطلعاً وحيوياً، لكنه في العمق غير ثوري، في جوهره هو شخص مسالم وضعيف، وسيجعله الأذى بنهار، سيدخله في حالة من التذبذب التي لم أرغب في إدخاله فيها. وهكذا وجدتني من جديد أعاني من داء الشفقة على بعض الناس، وعليه هو بالخصوص. هل لأنني كنت أحضره لمستقبل آخر؟ لخيار لن يتصور أبداً أنه سيقع فيه؟ تراني كنت أريد أن أكفر عن ذنبي القديم لمنيرة؟

حاولت أن أفعل شيئاً من أجل أولئك الطلبة، واتصلت بالكومندان مسعود، ولكن ردّ عليّ شخص آخر يعمل في مكتبه:

- ليس عنده وقت.

حاولت أن أذكره باسمي دون جدوى، وبعد شهر، أطلق سراح العشرات من الطلبة، أغلبهم كان قد تعرض للضرب والإهانة، وخرجوا منكسري الأرواح ومهزومين لأبعد حد، غير أن استقبالهم في الجامعة بتلك الحفاوة أعادت لهم روحهم النبيلة وأشعرهم بقيمة أن يكونوا أول المضحين من أجل تغيير الأوضاع في هذا البلد.

كنت معهم والإحساس بالخيانة ما فتئ يمزقني، والاحتقار للنفس يسلخ روحي عن جسدي. أي شعور ذاك الذي يمكن معايشته بذلك الألم والفجيعة؟ مثلت دور المرحبة والسعيدة، مثلت ولبست قناعاً مختلفاً وأدركت في لحظة من حياتي أنني صرت غريبة عن نفسي، غريبة عنهم، وغريبة عن العالم بأكمله. وأنني لا أعرف في أي طريق سأسير. هل يمكنني الاستمرار في الحياة بالشكل الذي كنت عليه؟ أسئلة تصرخ وترعد، ولكن ما من إجابة في الأفق تطمئنني وتريحني بالمرة.

***

خرجت الجزائر واثقة من نفسها بعد حوادث 1988، أما أنا فخرجت منكسرة، منهزمة، ومتوترة. فاجأني ذلك الانقلاب الذي حدث، فاجأني أن الكثير من الناس كانت تتوقع هذا الذي أدى إلى زوال نظام سياسي، أو تجمده لوقت قصير. ظهور حركات اجتماعية وسياسية تنادي بحقوقها وبحريتها بينما كنت أنا في عالم آخر، عالم صغير مع أنني تصورته شاسعاً وكبيراً.

في داخلي مزقني الشعور بأنني خدعت، وكنت مجرد دمية في يد رجال من فوق، أو رجل واحد يمثل كل ذلك الفوق العجيب

الغريب الذي لا نقترب منه إلا لنحترق بناره، لا ندرك جمال غيابه إلا عندما نكتشف خطورة حضوره، رجل أو رجال، استعملوني لمصلحتهم، وليس لمصلحة البلد، ولكن في نفس الوقت كنت أدرك أن الأمر لم يكن هكذا تماماً، لم أكن بريئة تمام البراءة، كان هناك شيء ما يخجلني، ويمزقني في الآن ذاته. كنت أحاور نفسي فأقول «ولكن على من أكذب، على من ألعب هنا؟ لقد كنت أعرف أن مخالطة سكان الليل، كانت تعرفني على عالم جديد. كنت أدرك أن طوبوية الطوباويين لن تدوم طويلا، سيفرحون، سيبتهجون وسيقذفون كبت السنوات الصامتة التي حشروا فيها منذ الاستقلال حتى اليوم، ثم تعود المياه لمجاريها، كل شيء في مكانه، لاشيء يتغير بتاتاً. من كان حشرة سيبقى حشرة، ومن صعد لمرتبة السيد سيبقى سيدا»

وبالفعل تغيرت أمور كثيرة بعد أكتوبر 88، لكن الجوهر بقي على حاله، حبيب منيرة صعق مما شاهده من تعذيب لأصدقائه فانطوى على نفسه، وحدثتني منيرة عن كلماته التي كان يحدثها بها:

«لا أصلح لأن أكون مناضلاً سياسياً، أنا ضعيف، أو أشعر بأنني أنتمي إلى طينة أو طبقة الضعفاء، ولا يمكنني مخادعة نفسي هنا، ربما هناك من هو أشجع مني لمواجهة آلة العقاب المريبة من أجل أفكاره تلك، أما أنا فلا»، أما منيرة فلم تكن أمورها واضحة، شيء من الفرح والانكسار، ابتهاج بالتغيير وإحساس بالذنب أيضاً. هكذا سحبت نفسها من المعركة، وقالت لي:

- المهم أن البلد انفتح سياسياً وهذا أمر لن يتراجعوا عليه.

وأيضا:

- أريد أن أتنعم بحبي معه، هذا هو هدفي من اليوم فصاعداً.

في قلبي قلت:

«تنعمي يا منيرة تنعمي، ارسمي لنفسك مستقبلاً ورديا، لكن حذار. إن القدر لا يرحم عندما يطعن من الخلف، لقد فعلها معي ذات يوم، وخرجت من التجربة مشلولة وشبه مهدمة».

رأيتهما يتعانقان، يقبلان بعضهما البعض في أكثر من مرة ومناسبة، كانا يبدوان كعصفورين ينقران بعضهما البعض، علاقة يتحدث عنها الجميع بفتنة وغواية:

- كأن منيرة خلقت لهذا الرجل، وهو خلق لها.

أما أنا فكنت أتضعضع، أحس بأن الزمن تغير، وتكسر بدوره، وأنه في تكسره قد أحدث بداخلي تشوهات، لكني بقيت على نمط عيشي السابق، أحرص على أن يكون هناك دائماً عالمان في حياتي: عالم النهار وعالم الليل. ومنذ اختفاء الكومندان مسعود لم أسأل عنه قط، ولم يقترب مني أي شخص من عالمهم ذاك، عدت لمجوني ونزقي الليلي، لعلاقات تنبني لتتهدم، مع أصحاب المال والثراء والغباء المفرط، شعرت بأن الكومندان غطس في البحر، وانزلق مع الأرشيفات السرية لنظام بوليسي كان هو جزءاً منه، ولم أكن أشك أن نوعه قد يختفي لمرحلة حسب متطلبات وظروف الفترة الجديدة لكنه حتماً سيعود ويطل برأسه للواجهة.

* * *

تعرفت على حبيب قلب منيرة عزيز السبع في إحدى الرحلات التي نظمت من طرف بعض الطلبة خارج العاصمة، وبالضبط لمدينة شرشال. كانت رحلة غريبة ومثيرة، وتعرفنا على بعض

بشكل ما، ومارسنا الحب في أول ليلة، لقد فعلت ذلك متعمدة، بسبب غيرتي من منيرة مرة أخرى، تلك الغيرة التي دفعتني للنيل منها بنفس الطريقة. تحدثت معه بشفافية، وتساءلت عما إن كان يأسر بصدقه أم بخيانته لمن يحب؟ لماذا فعلت ذلك؟ هل لأمتحن حبه لها أم لأمتحن قدرتي على الاستمرار في طريقتي الخاصة التي اعتمدتها كمنهاج صالح للعيش؟ لقد صارحته بسوء الحظ، لكنه لم يفهمني جيداً، وتصور أنني فقط أخلق وضعاً مأساوياً لأثير انتباهه، لم يفهم جوهر السوء الذي يسكن أعماقي، وأنني أعيش منذ طفولة بعيدة في ذلك الشيء الأسود، وأن فعلي الجنسي معه كان انتقاماً، ولكن من ماذا هذه المرة؟ من السعادة نفسها؟ أن يكون هناك سعادة وأحرم منها فذلك شيء مؤسف، معذرة يا منيرة، وقد فات وقت الاعتذار، لكن كيف كنت شريرة بذلك الشكل؟ كيف غطست في بحيرة السواد بتلك الصورة؟ ربما كانت غاية السوء أن تعليلات النقص لم تكن تنقص بدورها. لعل إن الإنسان يتحرك من لاوعيه، وفي قلب الظلام يصنع لوجهه طريقاً مضاء بنور خافت، ومهما كانت درجة ذلك النور، وقدرته على الإنارة فإنه يبقى ضوءاً مقتولاً ولكن يمكن السير عليه حتى النهاية.

إنه دربي إذن يا منيرة، وسواء أكان فيه شر، سُوء، إجرام غير واضح، قسوة زائدة عن اللزوم، فهي ليست إلا حياة مرتبطة بمسار، ومتجذرة في باطن.

* * *

بالرغم من أننا قضينا تقريباً أسبوعاً مع بعض، وتحدثنا في

أشياء كثيرة في الأدب والحياة، في الحب والجنس، في السياسة والمجتمع، غير أنه لم يستهوني بالمرة. لست أدري سبب نفوري منه، وتذمري من شخصه، ربما لأنني شعرت فجأة أنه خائن مثلي، يخون حبه لمنيرة، في أول امتحان حقيقي يحدث له. لقد حاول أن يبرر سلوكه أمام نفسه، وأمامي، بأن حبه لمنيرة لم يمس قط حتى وهو يفعل هذا معي، تبرير غريب من شخص مثقف وناضج، ويعي جيداً بأن تبرير الخيانة أمر فظيع للغاية. كان يمكنه أن يعترف بالخطأ وكفى، لكن كان يدرك أن مثل هذا الاعتراف سيعني مباشرة أنه سيفقدني حتماً، طمأنته من جهتي على أنني لا أريده حبيباً ولكن صديقاً قريباً وحميماً، يمكنني أن أتبادل معه أشياء كهذه كلما سنحت الفرصة، أخبرته بنمط تفكيري في الحياة:

- كل شيء إلى فناء، ولهذا أتنعم بكل دقيقة تمنحها لي الصدف الجميلة في الحياة.

وطبعاً اقتنع، ولم يناقشني كثيراً. لقد وقع في سحر جسدي بالتأكيد، هناك رجال لا يقاومون سحر الجسد، وكل قواهم وذكائهم ونضجهم لا ينفع في أمور من هذا القبيل، يتركون نزوة الرغبات تفقدهم عقولهم وتفكيرهم وتحيلهم من جهات عدة إلى مجرد حيوانات صغيرة تبحث سعادة جسدها فقط.

اعرف بأنني أظلمه هنا، وأدرك أنني قاسية عليه، ولكنني قاسية على الجميع، وأولهم نفسي، ولكن هذا كثير عليه، لو كنت موضوعية لقلت إنه لؤلؤة نادرة، وإنه يفكر بشكل مختلف، وما جذبه إلي ليس جسدي فقط، بل إحساسه بألمي، يجب أن أعترف بأنه استطاع أن يلمس نقطة حساسة في. لقد انتبه لذلك العذاب

الداخلي الذي يأكلني بعنف، بل كان متأكداً من أنني إنسانة تتعذب في أعماقها. لقد خلق شيئاً من الرأفة والود ناحيته، لم يصل الأمر لدرجة الحب، لأنني مثلما رغب هو تماماً، رغبت أن يبقى لمنيرة، أن يعيشا قصة حبهما كما يجب، كما في القصص السحرية الطويلة التي كنت اقرأها في الصغر. أردت ذلك حقاً، بالنسبة لي كان قد فات القطار على أن أعيش شيئاً مماثلاً، ولعي أدركت وأمي تموت بين ذراعيّ مرددة عبارتها الجهنمية «بلهاء، بلهاء». ماذا كان قصدها العميق من تلك الكلمة؟ لن اعرف طعم حب مجنون كهذا، لن أذوق ما عاشته لسنوات مع ذلك الزوج الثاني، وقد كانت محقة، ولقد فهمت هذا فيما بعد، لقد سارت حياتي في دروب جحيمية ولم يكن أمر التلذذ بطعم شيء اسمه الحب ممكناً بتاتاً، كان يمكنني أن أتذوق حواشيه لا غير، وأن أتخيله فقط.

* * *

تشبه الحياة في صورتها الأكثر مأساوية الأخطبوط الذي يتمكن من القبض عليك، يمسكك من أطرافك كلها، من قدميك إلى يديك إلى بطنك ورأسك، ولا يتركك قادراً على الحركة، ولا على فعل أي شيء. تستسلم لقوته الجبارة، لقدرته على سحقك، وتنتهي حياتك بهذا الشكل.

لم يكن الموت يخيفني بالمرة، طلبته مراراً، بل رجوت السماء أن تأخذني إلى مملكتها الأخرى، لكن والسنوات تمر، والحياة تتغذى من اليأس والقنوط، وأذرع الإخطبوط تزداد قبضتها شدة، ضاعت الأحلام الوردية الجميلة التي علقها الناس على ما

حدث من تغير، تفجرت المآسي والحرب، وانكشف المثال على ما يختفي وراءه من بشاعة.

وبقيت على عهدي السابق، بين بين، غير أن حالي استقر في علاقة مع رسام اسمه علي خالد، التقينا صدفة في إحدى الكابريهات التي صارت تعج بها البلد، وتحدثنا في أشياء عابرة، لكنه في آخر السهرة طلب مني أن أسمح له برسمي، فوافقت، هكذا من دون سبب مباشر، أو اقتناع بأن رسمه لي سيخلدني في النهاية. كانت تلك طريقته في مغازلتي فقط، وأرادها أن تكون على هذا الشكل، وافقت وذهبت معه إلى مرسمه، والذي هو بيته في نفس الوقت، كان يقع في أعالي حيدرة، ورأيت بيته الجميل، وقلت:

- ياه إنه رائع.

- نعم هو كذلك، لقد أقنعت والدي بصعوبة أن يتركني أعيش فيه، بل بكيت من أجل ذلك.

- وهل كان يريد أن يبيعه؟

- ليس تماماً..

وشعرت بأنه أحرج، لكنه واصل التحدث معي:

- القصة طويلة، ومع ذلك سأختصرها لك في ثلاث جمل. والدي من رجال المال المتدينين، ومن أنصار الحزب الديني، وقد رغب في الزكاة بهذا المبنى ليصبح مسجدا.

انفجرت ضاحكة من الطريقة التي حكى بها وقلت له:

- لا أتصورك ابن رجل متدين.

- لم يكن هكذا من قبل، لكن كبر سنه وشعوره بأنه سيموت هو الذي خلق هذه الميولات في قلبه، صحيح أنه من عائلة

متصوفة من الصحراء، لكن كل ذلك لم يمنعه من العيش حسب هواه عندما كان شاباً يافعاً، الآن عندما ألتقيه لا يتحدث لي إلا عن الموت والصلاة. تصوري.

أعجبني علي خالد وتمكن من الدخول إلى شغاف قلبي، وشعرت بأنني يمكن أن أطمئن إليه، أن أرتاح معه، كان صريحاً ومتواضعاً وأليفاً ويكسر كل الحواجز بسرعة، وعندما سألته مرة عن نظرته لي عندما شاهدني أول مرة أجابني من دون تردد:

- عاهرة نبيلة ومثقفة، من النوع الذي تحدث عنه سارتر.

لم تؤلمني تسميتي بعاهرة، لكني تساءلت في نفسي. هل كنت عاهرة حقاً؟ ولماذا أخفي على نفسي شيئاً كهذا؟ لماذا لا أردده على نفسي باستمرار. «أتصورني أكثر امرأة حرة في علاقاتها وحياتها» هكذا أجبته فيما راح من يدقق في وجهي، وهو يقول: نعم سيكون من أجمل البورتريهات التي سأرسمها في حياتي..

تركته يرسمني وأنا أتفرج عليه. كل شيء يدور ويدور في رأسي: هل سأبقى معه؟هل أخلد لسكينتي معه؟ هل اختبئ عنده؟ ماذا أنتظر منه؟ ليلة واحدة وأنساه، ليلتان، شهر، عام، أكثر من عام؟ ممَّ كنت خائفة في النهاية، من الظلام؟ من دكنة الظلام؟ من ذلك الذي كنت أتوجسه وأحدس به؟ وما الذي كنت أحدسه؟ الحياة تغيرت في بضع سنين بعد أكتوبر 88. الحياة تغيرت، والناس تغيروا، وزوج أمي صار يلعنني كالشيطانة ويحذرني من حرائق الآخرة، ومن..وكنت عبره أدرك أن روحي صعدت إلى أبعد نقطة في السماء، ثم سقطت دفعة واحدة على الأرض، المرايا تكسرت، والصور تمزقت، والأحلام الكبيرة ماتت.. ماتت..

سألني علي خالد:

- فيما أنت شاردة؟

فقلت مبتسمة:

- لقد قررت شيئا مهما اليوم.

ولم يسألني عن قراري ذاك، لكنني شعرت أنه فهم، وأن بيته سيصبح ملجئي عندما تنفجر الحرب، تلك التي كانت نذرها تتسارع، وملامحها تظهر في الأفق.

بزغ علي خالد في ليلي المظلم فجأة لينير بعض الوريقات الصغيرة من أوراق روحي، وليشعرني أن حياتي مهما كانت سيئة فهي لم تكن تافهة تماماً، وأنه يمكنني أن أطمئن لشيء مختلف وأحلم بسكينة وإن تكن قصيرة الأمد في صخب الأمواج المتدافعة التي تبحث عن شاطئ تنتحر عليه.

(2)

بصعوبة كنت أفتش عن وجهي في المرآة.

شعرت بأنه اختفى مني. ليس هذا هو وجهي الذي أراه. في الحرب كل شيء فقد ميزته وروحه، أما وجهي فضاع مني، ضاع بحيث أنني وأنا أبحث عنه كنت لا أراه، أو أنه ذاب في وجه آخر. وجه جديد ولا يربطه بالأول أي رابط.

في بيت علي خالد عشت أيام الحرب المهولة.

عندما بدأ الاقتتال. ضاع كل شيء، ضاع كل شيء تقريباً، الحقيقة دفنت في التراب، والموت أخرج رأسه ينادي ضحاياه. في البدايات الأولى لتلك الحرب انزرع الرعب في قلوب الجميع، ولم يعد أحد يشعر بالأمن أو الطمأنينة. كنا نتهاتف فقط، نسأل عن بعضنا البعض من بعيد لبعيد: «هل أنت حي؟ حسنا اعتني بحياتك، مع السلامة»، علي خالد طمأنني أن بيته سيكون بيتي، كان أكثر من شهم ونبيل، وعلاقتي به أخذت مجرى مختلفاً، ومميزاً وكثيف المشاعر، وبخاصة عندما عرف برسائل التهديد التي وصلتني، ولم يكن غير زوج أمي من بعثها لي. كنت مستعدة أن أقسم بأغلظ الأيمان وأقول: هو، لكن نفيت علمي بالمصدر عندما حققت معي الشرطة في القضية، ولعلهم كانوا يعلمون بأن الرجل يعمل في الظلام، ومع جماعة من الذين رفعوا السلاح وصعدوا للجبل.

عليه خالد وقف معي، ومع الكثيرين، كان أحياناً يؤوي العديد

من أصدقائه المثقفين الهاربين من جحيم الضواحي، فبيته الواسع كان يحتضنهم، هناك في أعالي حيدرة لم يكن من خطر على حياتهم، المكان مؤمن بالسفارات الأجنبية وإقامات المسؤولين الكبار. ووالد خالد تغير بحسب منطق الأشياء، أو منطق المصلحة. لا يمكن لرجل التجارة والمال أن يساير هؤلاء المجانيين. لقد توقف عن مدهم بأي دينار، وتصالح مع رجال الظل الأقوياء، أصحاب المال ينفذون بجلدهم دائما، والمال يوفر لهم الحماية والأمان، وعلي خالد كان يعي ما يحدث لكن كان يقول لي:

- أفضله هكذا على ما كان عليه.

كنت أنظر لعلي خالد بفرح، فمعه أخذت الحياة طعماً جديداً عليَّ، نتآزر، نتحد في مجابهة ما يحرمنا من كل شيء، كنا نتوقع أن الحرب ستصمت في سنة أو سنتين، ولكنها استمرت، ومرت أربع سنوات في تقتيل شرس وحرب، لا ترحم صغيرا أو كبيرا، وبدت بلانهاية، بلا أفق، وبلا أي هدف واضح، لا من هذه الجهة، ولا من تلك.

هنا قال لي علي خالد: «يجب أن نسافر».

وعندما سألته «إلى أين؟»

قال بأن كل الترتيبات جاهزة، وما علينا إلا نختار موعد السفر لباريس. قبلة كل المثقفين آنذاك. لم اسأله «ماذا سنفعل هناك؟ كيف سنعيش؟» قبلت ذلك في صمت، وسافرنا إلى تلك المدينة المجللة بالأنوار والعشق، أو هذا ما شعرت به وأنا أدخلها أول مرة، وجدنا مجموعة من الفرنسيين في استقبالنا، وسمعتهم يتحدثون مع علي خالد في أمور مرتبطة بما يحدث في البلد:

- لقد جهزنا كل شيء لتبدأ الحملة المضادة لأولئك المجرمين

المتعصبين.

وبدا أن علي خالد قد تبنى أطروحة سياسية وجاء ليدافع عنها. كان المطلوب منه فقط أن يقدم شهادات حية عما يحدث هناك، أن يضمن تأييد المثقفين لصالح حماية البلد من السقوط في يد من ينعتونهم بالظلاميين، ولم أكن أحضر الندوات التي كان يعود منها مستنزفاً، متعباً، أرقاً من الأسئلة، والذكريات والمواجهات. كان يعود ويرتمي عليَّ معانقاً ومقبلاً ومستريحاً، صارخاً، ومتضرعاً:

«أنت جنتي في هذه الدنيا، وخلاصي في هذه الحياة».

ولعلّي كنت مأواه وجنته وخلاصه، ولكن في داخلي كنت اسأل لماذا تغير بهذا الشكل؟ ولماذا عندما كان في البلد كان أكثر إيجابية في تضامنه وتآزره مع الأخريين منه هنا.

عرفت أن المنفى يقتل الناس من الداخل، كل يوم ينزف منهم شيء جميل، وذكرى رائعة، كل دقيقة تمر تشعرهم بأن حياتهم وراءهم.

أما أنا فماذا كنت أفعل؟ لقد بدأت أشعر بأن ما يحدث في البلد هو نتاج سلسلة من الإخفاقات، وكان محتماً أن تقود لحرب كهذه، لقد احتقنت الأوضاع، وتركت مهملة، ولا بد في لحظة من الزمن أن تنفجر تلك الاحتقانات، أن تتقيح كجرثومة خبيثة، لكن كان واضحاً أن الحشرات الصغيرة هي التي كانت تدفع الثمن، وأن طوبوية الطوبويين قد سحقت على الأرض، وأن من كان سيداً سيبقى كذلك، بل سيزداد شراسة وقوة، وماذا كانوا ينتظرون من أمر غير أن تعطى لهم فرصة لإبراز قوتهم. لينجلي من أي طينة جبلوا.

كانت الحرب غير واضحة تقريباً، وبقدر ما يبدو وضوحها في عدد الضحايا الذين يتكاثرون، كان غموضها يكمن في أنها لم ترغب في أن تضع حداً لها، إنه التعنت الجزائري المخيف حتى أمام الآلاف ممن يموتون شهرياً. لقد كانت جبهة الموت مفتوحة، وكل يوم تطلب المزيد.

* * *

استكنت للقدر، نعم هذا الذي لم أتصالح معه قط منذ أخذ والدي ولعب معي تلك اللعبة القاسية، وقادني بشكل من الأشكال لأسقط في لحظة تدمير قصوى. شعرت بأنه لن يحدث لي إلا ما هو مكتوب عليَّ، وشيئاً فشيئاً كنت أشعر بأن قدري هو أن أعيش كل هذه الخيبات والتجارب، وأدرك أنه لا مفر. ولكن من ماذا؟ من الحياة؟ من الذهاب للأمام؟ وما الذي يوجد في هذا الأمام من إغراء حتى يذهب له الإنسان مترنماً وسعيداً، أو حزيناً ومتألماً؟ ماذا يخبئ لنا القدر؟ قلت: يجب الاطمئنان فقط لا غير. واطمئنيت.

كان قد مضى عام على مكوثنا في باريس، وبينما رحت أشاهد جمرة علي خالد تنطفئ، وروحه الرومانسية العاشقة تخبو، وحياته تتهدم بشكل خطير يوماً بعد آخر، كموت بالتقسيط، وفنه يهرب منه أو يضيع، كنت بدوري أضيع منه، وأتوه بعيداً عنه.

كانت حياتي تمر من قدام عيني كشريط سينمائي، فأتذكر من عرفت، أحن للبعض، وأفرح لتذكر وجوه البعض الآخر.

كنت منفية بدوري، وهاربة مثل من هربوا، لكن بفرق واحد، بقيت صامتة، ولا أتحدث في السياسة، كل من كان يتحدث

وينفعل كان يتهدم داخلياً، يشعر بأنه يستنزف في حرب ليس إلا هو دمية فيها، بوقاً لجهة دون أخرى، ضد البربرية: هكذا يصرخون، ولكن أنا التي عرفت قبل كل شيء بربرية من يعيشون فوق في عالمي الليلي، كنت أقول: أي فرق؟ إنهم يتشابهون وسيتقاتلون من دون رحمة أو شفقة، وسيكون الضحايا هم أولئك الذين تركوا العالم يسير وفق أمزجة متهورة لأقلية صغيرة تحكمهم بالأوهام والشعارات والقوة.

غير أن صمودي لم يكن مرده إلى أنني في روحي بقيت بعيدة، وبداخلي ظللت أعيش أشياء مختلفة فقط، فلقد كان انهيار علي خالد وغطسه في الشرب بلا حدود يهدمني معه، ويجرفني إلى هاويته السحيقة، ما أنقذني في النهاية هو الرسائل التي كان يصر على كتابتها كلما سنحت له الفرصة، وكان صدق رسائله يصلني بقوة، يثير في أشجان حب غريبة، وومضات برق خاطفة ومثيرة، ويفتح بقلبي شاشات نور مضيئة، وأطيافاً من الأحلام السعيدة.

مع كل رسالة كانت تصلني كنت أشعر بدمائي تتجدد في عروقي الناشفة، وبروحي تستلقي فوق عشب أخضر، وبنظري يطير لأبعد من منفاي الداخلي هذا، وبكل شيء يرقص ويغني ويزغرد. نعم وأكثر من هذا.

فجأة شعرت بأن هناك شيئا اسمه قوة الكلمات، وبالرغم من أن رسائلي التي كنت أبعثها له كانت قصيرة وتشرح همومي في هذا البعد المتوحش رغم جماله الصاعق، كان هو يذكرني بأن الحياة الجميلة ممكنة في أي لحظة، وأن على الإنسان أن يبقى مشدوداً لخيط الضوء، للنور الذي لا ينطفئ ولا يموت، للقلب

العاشق بقوة للحياة.

ربما ساعدني من حيث لا يدري بأن أنقذني من شرك اليأس والذبول. من شرك هاوية على خالد التي قادته فجأة وقد وصل إلى ذروة الانسحاق ليشنق نفسه.

لم يترك رسالة، لم يقل أي شيء، ولم أفهم إلا أنه فعلها دون أن يشعر بجدوى تبرير موته الداخلي قبل أن يقدم على موته الحقيقي.

مات علي خالد وجبهة الحرب بقيت مفتوحة، ولم أمت لأن شيئاً ما في السماء، ربما كان القدر. شاء أن أعود ثانية بموته لبلدي من جديد. لتلك الأرض التي بدأت أشعر نحوها بالكثير من الانتماء المشوش والغريب والآسر.

* * *

أعود إلى لجزائر محملة بالكثير من الأوهام اللذيذة المسكرة.

كنت أعرف بأنني أعود من أجل شيء آخر، والآن عندما أفكر فيه. ماذا كنت أريد حقاً غير أن أقتل برصاصات طائشة، أو بشكل متعمد، أو في انفجار يحدث صدفة؟ هكذا كنت اسمع عن مقتل الآخرين، كنت أرى صورهم وهم مرتبون بعناية لإظهار حجم الكارثة، واستعطاف عواطف الناس التي كانت منهارة أو ناشفة. لاستخدامهم في معركة الإعلام الأكثر شراسة.

كان الصديق الصحفي الفرنسي مارسيل الذي جاء معي إلى لجزائر من أجل تحقيق صحفي يقول لي:

- حربكم غريبة! لا يوجد فيها صور!

وعندما أرشدته إلى صور الضحايا الهائلة، قال:

- لم أقصد هذا، في كل حرب تلعب الصور دوراً مضاداً للحرب، ولكن ليس الصور الموجهة.

لم أناقشه، فهمت مقصده جيداً، لا بد أنه كان يعني أن هناك من يغطي على الحقيقة، وأن إرغام العالم على رؤية وجه واحد لن يساعد على وضع حد للحرب.

مارسيل بالرغم من مهنيته، وحبه لعمله الصحفي وجريه وراء السبق الصحفي حتى لو كان فيه أمر مخجل للضمير الإنساني، إلا أنه كان يحب الجزائر، بلد والديه، وطفولته التي يقول إنه يتذكر منها اللون الأبيض، وزرقة البحر.

ضحك وهو يسمعني أخاطبه:

- جزائركم وجزائرنا.

- وما الفرق؟

هكذا سألني. وهو يتعمد بلاهة ما، فقلت مبتسمة هذه المرة:

- كانت لكم وأصبحت لنا. لقد ولدت جزائرنا عام 1962.

عندئذٍ قال متعمدا الإساءة أو الاستفزاز:

- ولم تعرفوا كيف تجافظون عليها.

أومأت له بالإيجاب غير أنني أضفت:

- ولكن ماذا كنتم تتوقعون منا؟ أن نبقى ننتظر صحوة ضميركم فجأة وتقدرون رغبتنا في الحياة مثلما كنتم تتنعمون بها؟

قال:

- لست استعمارياً في تفكيري. أنا ضد كل أشكال العبودية والظلم والعنصرية، ولكن خسارة! كان يمكننا أن نعيش مع بعض وأن نكون شيئاً مختلفاً مثلما فعلتم أنتم العرب في بلد مثل إسبانيا «فردوسكم المفقود».

قلت عابسة هذه المرة:

- بل فردوس العالم المفقود. أي تراث إنساني مشع هو للإنسانية جمعاء. نحن نؤمن بهذا منذ القدم.

خشونة رأس الجزائري كان يعرفها مارسيل جيداً، وكان يحدثني على مصاعبه في العمل مع الجزائريين، كبرياؤهم الغريب الذي يجعلهم يتحسسون لكل كلمة قد تفسر على أنها ضدهم، كبرياؤهم الغامض، وقال متسائلاً:

- هل لأنهم في أعماقهم يشعرون بالخوف؟

- الخوف من ماذا يا مرسيل؟

- لا أدري، أشعر بأن عنف الجزائريين الوحشي هذا غير مبرر.

طلبت منه أن لا يعمم، وأن يتحدث عن نسبة من المجتمع فقط، هي عنيفة لمبررات أو أسباب يحللها كل طرف حسب موقفه وهواه. لكنه أصر على أن الأمر فيه شيء من الخوف. فعدت أهز رأسي بالإيجاب. وسألته بدوري:

- وهل الشعب الفرنسي لا يخاف؟

فقال مسرعاً:

- بلى لكنه لا يميل للعنف. إنه يحل مشاكله بطريقته الخاصة.

- عقلانية ديكارت.

- لا أريد أن ارفع الفرنسيين لمرتبة عالية من النضج والتفكير، ولكن هناك عقلانية ما تضبط تصرفاتنا أما أنتم.

وافقته بعض الشيء، كان الحديث معه مستفزاً جداً، عندما يتدخل الآخر في شؤوننا الخاصة نشعر بسرعة أننا هوجمنا، أننا يجب أن ندافع، هكذا لا نستفيد من تفكير الآخر، فنسرع لترميم

ثغورنا المفتوحة.

توادعنا في المطار. تركته لسيارة أمنية خاصة جاءت تأخذه إلى الفندق الذي سيبيت فيه، فيما بقيت أتأمل الجزائر بعينين متحسرتين، ولم أشعر بأن شيئاً تغير بالفعل، سوى أن الحزن ربما كان أكثر تجلياً على الوجوه، مع لامبالاة غريبة.

* * *

لم أتوقع حدوث معجزات في حياتي وأنا أعود.

لم أطلب منيرة في الهاتف، ولا حبيبها الغالي، شعرت بأنني يجب أن أخلد لفترة من الصمت، وأتعايش فيها من جديد مع جو الوحشة والعنف والكآبة اليوميين، وأن أفكر فيما أفعله مجدداً بعد أن لم يعد عندي شعور قوي بالزمن المتسارع، وبالجري وراء غموض الاكتشاف، ومتعة المخاطرة بنفسي فيمالا أعرف من طرقات ومتاهات.

الحياة هي نفسها لا تتغير.

كل شيء في مكانه، البيت الذي ولدت فيه. وكبرت رأيته كما تركته أول مرة تقريباً. زوج أمي عرفت أنه ملقى في السجن بتهم كثيرة، وشعرت بأمان لأنه في ذلك المكان، ولأنني لن ألتقي به ثانية. لهذا كان البقاء في بيتي شيئاً ينعش الروح، ويثير في لحناً خاصاً من الذكريات التي راحت تتهاطل في رأسي بشكل غريب ومؤثر.

لم أفكر قط أن أسجن نفسي في ماضي الخاص، كثير من الناس يرتاحون في ماضيهم، على العكس مني أنا التي رغبت دائما في الاستسلام لعبث المجهول، ومكاتيب القدر. أترك

خطواتي تسير بلا هدف. كل شيء قد يتحقق من بعد. ما ننتظره وما لا ننتظره، تلك هي بلاغة الأقدار، والصدف، إما أن تثق فيها، أو لا تثق، إما أن تقبل أن تذهب وراءها، أو تحاول صنع قدرية خاصة، لكن ثمنها سيكون فادحاً دائماً.

عليَّ ترميم حياتي بعدما تهدم منها الشيء الكثير، ولكن كيف؟ ومن أين ابدأ؟ لا أخفي بأنني فكرت أن ألتقيه بعد كل هذا الغياب، وأن حزمة رسائله التي بعثها لي من فرنسا قد مارست عليَّ تأثيراً غريباً ومفرحاً. بفضلها نجوت من حمأة السقوط الفاجعة الانهيار مثلما حدث لعلي خالد. ومثلما حدث لكثيرين، تلك النفوس الرهيفة التي لم تستطع أن تخون نفسها أبداً، بينما كان سهلا على آخرين أن يلعبوا دور الضحايا بشكل غريب، وأن يحصدوا جوائز في الشجاعة والحرية وحقوق الإنسان في أرض الغربة: باريس.

أعرف بأن على خالد كان يكرههم ويمقت تبجحهم وادعاءاتهم، كان يصرخ أحيانا في غرفة النوم«لست مثل هؤلاء السماسرة والمرتزقين». ربما زاد ذلك من غليانه النفسي وشعوره بالقهر.

وأذكر كيف أن واحداً من هؤلاء الذين يتبجحون بأشياء بطولية خارقة أثر فيه مرة، وهو يقول له بوقاحة غريبة:

- حاول أن تستفيد لأن الحرب لن تدوم طويلا.

كان يكرههم جداً، ويشرب أحيانا لينسى وجوههم كما يقول.

كنت أذكره هو أيضاً، وأحن إليه، وأشعر بعمق أنه كان قدري الأجمل الذي خاب في منتصف الطريق، خاب دون أن يصمد ليشعرني أن هنالك إمكانية أخرى للحب بعمق، والعيش بنقاء.

تركت نفسي تسبح في نهر الذكريات، واسترجعت ماضي

بخطوطه العريضة والطويلة كما يقال، ودققت في كل محطة من حياتي، وشعرت بتأنيب ضمير غريب تجاه كل ما صدر مني من مساوئ، وأنا أدرك فجأة حجم ما عانيته من تمزق وحيرة، لم يكن هناك عالمان في النهاية، بل عالم واحد، كان الليل والنهار جزءاً من تكويني ورؤيتي للحياة، جزءاً مما تشكلت عليه، وتفردت به، وصنعته لنفسي كي أعيش وفق منطقه وحسب مشيئته. لم يدفعني أحد قط إلى خياراتي السيئة، بل قبلت بها وأديتها كما يجب. فعلت ذلك راضية ومطمئنة. سعيدة وقابلة بتألمي مع ذلك، واعترفت لنفسي بأن ذلك التناقض المرعب كان حيوياً في نفس الوقت، لقد أعطاني الفرصة لأتصيد ثقوب حياتنا البشرية. لأعرف ما فيها من خير وشر، لأستكنه طبيعة النفس الإنسانية الغارقة في لجج وصراعات لا تتوقف.

الحياة. ما هي؟

قد يقول البعض هي هذا كله، المزيج والخليط من كل شيء، وقد يقول البعض الحياة هي ما نطمح إليه لا غير.

مع حبيب منيرة الغالي شعرت بأنه يمكن حدوث شيء يرتفع بي لأعلى. بالرغم من أنني لا أستطيع أن أعطي للحب فوق ما هو عليه في الحياة نفسها، لكن ثمة أشخاص يمنحونه شيئاً من بهاءهم الخاص، وروحهم المختلفة، مثلما كان يمكن لو بقي لعلي خالد لو بقي على قيد الحياة أن يثمن هذا العمق الجميل بداخلي، إلا أنه رحل بأسئلته وهمومه وقرحته النفسية، راح متوجعاً ومتهدماً وغاضباً على أن ما كان قضية تستحق أن يناضل المثقفون من أجلها، تحولت إلى شيء يستثمر فيه ويرتزق به من طرف أبناء جلدته، هؤلاء الأبطال الوهميين الذين صنعوا مجداً

على حساب جماجم شعبهم ومآسيه البشعة.

الحياة. ما هي؟

لازلت أسأل، ولا أعرف كيف أجيب. أم تراني أجبت؟ هل كان عرض حياتي بهذا الشكل إجابة كافية لمن لا يستكنه معنى الدروس ولا يستخلص منها العبر.

أأوجه هذا الكلام لنفسي أم لغيري؟ لا أدعي أنني فهمت، لقد امتحنتني الحياة بشكل قاس جداً، وبطريقة سيئة للغاية، ولم يكن ذلك كافياً لاستوعب أي درس، وعدت للجزائر بنفس التوثبات الغامضة، والرغبات المجنونة، بخبرة كبيرة فقط، بخبرة من أصبحت تملك رأسمالاً رمزياً ثرياً لتكمل طريقها الأكثر ظلاماً من ذي قبل.

* * *

لم أستغرب أن يطلبني الكومندان مسعود ليلتها بالهاتف، من غيره يستطيع أن يعرف بأنني عدت للجزائر؟ أنا التي لم تغادر البيت منذ ثلاثة أشهر، وطلب مني أن نلتقي في كابريه السعادة بالقرب من شاطئ «لامادراك».

وافقت دون أن أناقش المسألة مع نفسي، قائلة بداخلي فقط «أنا راغبة في العودة إلى شيء افتقدته فجأة: العيش في الخطر، تحدي الخوف، الجرأة في الاقتحام، العبث الليلي الذي كان يزيدني قوة ليلة بعد أخرى».

وكنت هناك في الليل. الساعة العاشرة إلا ربع، من غير العاهرات يخرجن في وقت كهذا بالجزائر؟ حتى سائق الأجرة سألني بكم الليلة فلم أرد عليه، ولم يلح هو، نظرة السائق بقيت

ملتصقة بي، من أين جاءت هذه النظرة للأنثى؟ مليئة بالشبق والمحرمات، مليئة بالخضوع والانحناءات، المرأة هي المرأة، تصلح لشيء اسمه الجنس لا غير، سواء أكنا في زمن الحرب. أو السلم، لكن الجنس سأفعله بمزاجي، وبحسب رغبتي، ووفق منطق مصالحي أيها السائق الأبله الحقير.

لم يكبر كثيراً الكومندان مسعود، خمس سنوات مرت ولازال يحتفظ بنضارة وجهه، واستقامة جسده، وبشاشة ابتسامته، رحب بي كثيراً وقال:

- لم اصدق عندما قيل لي انك بالجزائر منذ ثلاثة أشهر.

وقبل أن أجيبه واصل حديثه ليشعرني بأنه يعرف كل التفاصيل.

- متأسف جداً أن صديقك انتحر بباريس. هذا الرجل كنت أحبه جداً، كان يبدو لي مختلفاً عن فناني جيله الذين يشترون بقطعة دينار صغيرة.

في قلبي كانت موسيقى تلحن وبصوت خافت، فتداعيت معها، موسيقى البحر على ما أظن. هل كان ذلك لأنني كنت أرغب في عدم مجاراته في الكلام؟ هل لأنني، وهو يقول يباعون بقطعة دينار صغيرة أحسست أنه يقصد شيئا محددا يمسني بدرجة ما، أو يمسني مباشرة؟ تركته يحكي، ويقول كلماته، قال كلاماً كثيراً استوقفتني منه قوله:

- لقد أحالوني على التقاعد بسبب التعذيب في حوادث 88. والآن بعدما اندلعت الحرب يلحون على عودتي ثانية. لقد اقتنعوا بأن ذلك هو الطريق الأنسب لربح الحرب.

تساءلت لماذا يريد أن يخلق جواً من الثقة والطمأنينة بيننا؟ ماذا يريد في النهاية؟ لقد دفعت ديني له، وكتبت تقارير في

زملائي الطلبة المثاليين الذين أحرقهم التعذيب، وهدم أرواحهم.

شعر فجأة بأنني أتألم من كلامه فصمت وطلب لي كأساً «شامبان كالعادة»، وله «ويسكي» متحدثاً من جديد:

- شرب الويسكي يريحني، يهدئ أعصابي، يجعلني أفكر بروية، لقد تدربت على منطق التفكير بروية، أخذ الأمور بجدية، رفض الخطأ، أضع كل الاحتمالات، لكن لا يجب ألّا أخطئ. هذا مهم في عملي.

كان رأسي يقول لي «اضربيه بكأس الويسكي، بكأس الشامبان، بهدليه وانصرفي»، لكن جزءاً آخر فيّ كان صامتاً، ينتظر هدفه من كل هذا الحديث وهذه الدعوة، حتى سمعته يقول:

- أنا بخير ولن أعود لهم طبعاً. تصوري الحرب هذه نفعتني كثيراً.

سألته فيما نفعته فلم يتردد في الإجابة:

- ألم تسمعي بشركتي الأمنية؟ كل المؤسسات والبنوك الخاصة ورجال الأعمال يبحثون اليوم عمن يحرس ممتلكاتهم. لقد أصبحت ثرياً في ظرف قياسي للغاية.

قلت كما لو أنني أحتج على كل كلامه:

- ماذا تريد مني؟

فقال وهو مبتسماً يعلن علي خبره السعيد ذاك:

- نتزوج. هذه أمنيتي الوحيدة الآن، لقد عرفتك جيداً وأنت الوحيدة التي تصلحين لكي تكوني زوجتي وشريكتي في الحياة.

لقد أسعدتني المفاجأة، بالرغم من هولها، سعدت بها، كثيراً. ووافقت.

* * *

لم أناقش كثيراً مع الكومندان مسعود وأنا أوافق. حتى مراسم الزواج وشكلياته بدت لي أمراً في غير محله، لكن الرجل كان ذكيا جدا وهو يسألني:

- لا أريدك أن توافقي من دون رغبة حقيقية في الزواج مني. تأكدي من أنني لست من هذا النوع.

وراح يتحدث عن زيجاته السابقة. وقال بأن الأولى أم الأولاد تزوج بها بعد الاستقلال مباشرة، كان يحبها وهو شاب في الجبال يجاهد من أجل تحرر البلاد، لكنها ماتت بمرض خبيث، والثانية تزوجها فقط ليروح على نفسه ولم ينجب منها أي طفل، وطلقها بعد ستة أشهر فقط من العيش المشترك، وفاجأني عندما أخبرني بأن الثالثة امرأة ترقية من الصحراء، وأنها تفضل العيش هناك، وأنه من حين لآخر يسافر ليقضي معها ليلة أو ليلتين، ومدح لي خصال الترقيات وشبقهن الغريب، ثم قال يسكّن قلقاً ظنه في:

- صحيح أني أكبرك بعدة عقود، ولربما كنت في سن والدك لو بقي على قيد الحياة. لكن السن بالنسبة للرجل غير مهم تماماً. أنا في حياتي العائلية غير الرجل الذي تظنين أنك تعرفينه.

قلت له مصارحة بدوري:

- لست أنت الرجل الذي كنت أحلم بالزواج منه، ولكن لا تقلق بشأني. لقد كبرت، وأنضجتني مآسي الحياة، سأقدر ما تمنحه لي من فرصة لأن أتمتع بحياة رغد ورفاه معك.

وافقت بلا تفكير تقريباً، بلا اهتمام بأنني سأعيش مع شخص أمقته بعض الشيء، أو أمقت ما كانه من قبل، وما هو عليه، وأظن أنه بمنظار علي خالد أو منيرة أو حبيبها الغالي يمثل ذلك النوع الذي - لظروف وأسباب معينة - ترك البلد يغرق. وينزلق ويتوه.

لم أكن مهتمة بالسياسية كثيراً لأدخل في جدل مع نفسي حول دور الكومندان مسعود في أزمة البلد وغيرها من المسائل، وربما في أعماق لاشعوري كنت أعتبر نفسي جزءاً من طبقة هذا الرجل بالذات، لقد أردت أن أكون من طينة مختلفة، ولم أستطع قط التوفيق بين عالمي، لقد وحدتهما فيما أنا عليه، مزيج من ليل ونهار، خير وشر، حب وكراهية. ولم يكن مسعود بالشر المحض: هكذا أصبحت أناديه بدون لقبه العسكري، وقد صار يشاركني حياتي بمسراتها وآلامها. إن توصيفه بهذه الصورة ليس صحيحاً تماماً، أحياناً نظلم الناس لأننا نحاكمهم من خلال وظائفهم، لكنهم بشر في النهاية، ولهم ما يجعلهم على غرار كل الناس، فيهم السماوي والأرضي.

لا أبالغ إن قلت أن زواجي أشعرني بطمأنينة غريبة لم أشعر بها قط من قبل، براحة وسكينة، بالرغم من أنني لم أكن أرى مسعود دائماً، كان يغيب لأسابيع، وهو يذكرني على الدوام:

«أنا من النوع الذي تقتضي طبيعة عمله أن يكون على علم بكل الخبايا، هفوة مني ويسحب البساط بسرعة». ولكي لا يسحب منه البساط كان يحافظ على علاقاته الأخطبوطية مع أطراف عديدة من النظام، وأطراف عديدة من رجال المال، وأطراف عديدة من خارج البلاد.

لم أكن أسأله عما يعمله، ولا عمّ يحدث في الداخل، فجبهة الحرب كانت لا تزال مفتوحة، تضرب بوحشية وعنف، والقتلى بالآلاف لكني كنت أراه أحياناً مهموماً بأشياء تقض مضجعه وتطير النعاس منه، تركته لحاله مثلما كان شأني تقريباً مع علي خالد، لا أنخرط في مواجهات وصراعات لا أفهم خيوطها الخافية

وخيوطها الظاهرة. ولا أدرك من يستفيد منها ومن يلعب بتلك الحبال من وراء الستار.

كانت علاقتي بالعالم محدودة تقريباً، شغلت بأشيائي الخاصة، كنت اقرأ كثيراً أيامها روايات من كل العالم، وأتذكر حياتي مع كل رواية اقرأها، وأسقطها عليها، وأنا أضع مقارنات غريبة بيني وبين بطلات من روايات عالمية، آنا كارنين، مدام بوفاري.. ولا أدري كيف وجدت نفسي في جنة الأدب أكثر حيوية وسعادة.

شعرت بأن الخيال يفتح شاشات في ذهن الإنسان تكون مغمضة من قبل، ويزرع في قلبك بذور قلق إنساني، تصبح الحياة متوهجة جداً، أكثر توتراً، وأجمل سحراً، يستفيق بداخل الواحد منا شيطان إنساني يدفعه للتشبث بالعمق، للفرز بين النور والظلام. ولكن من دون أن يحكم طرف على آخر. كأن الأدب لا يقول لنا ها هو الخير، وها هو الشر، لا يفعل ذلك مثلما يفعل الدين مثلا، ولكن يتركنا حيارى ومتسائلين: أين هو الخير وأين هو الشر؟ ولماذا يحمل الوجه معالمهما معاً؟ ولماذا يضج القلب بالنبل والسوء في نفس الوقت؟

وخلال قراءاتي كانت صورته تبرز واضحة في رأسي.

أيام الجامعة، وهو يصعد للمنصة ويتحدث عن روايات قرأها وأعجب بها.

كان حبيب منيرة الغالي يقظاً دوما، مدركاً من البداية لقوة الأدب وسحره، لفتنته وبراعته، لجوهره وعمقه، قلة كانت تسترعيها هذه الأمور، وتلك القلة أدركت خلاصها في الخيال، وآمنت بافتراضاته، ومنحها ذلك كله صدق الإنسان الأعمق.

ازدادت قيمته في قلبي، وشعرت بأنني ظلمته، على نحو ما،

فقد أغريته، أعطيته ونهبت منه، أخذت منه ما كان يود عيشه معي.

تساءلت: ألم يكن خلاصي الذي ضيعته من بين يدي؟ وقلت بعدها نافية، أو محتارة: ولماذا يأتي خلاصي على حساب شخص آخر؟

الحياة تُعاش، وتُؤخذ بالقوة، نحن لا نعرف من سيسقط في بداية الطريق أو في منتصفه أو في نهايته، ولهذا كل ما يحصل يحصل وكفى، ولا بد من استخلاص الدروس. قيمة الحياة هي في استخلاص العبر، رغم ذلك، لم يكن خلاصي مهماً، وإذ كنت أتذكره هو بالذات فلأن شيئاً ما يجعلني دائماً أشعر نحوه بصدق غريب. لقد لامس ذلك الشيء المتألم والمؤلم فيّ، لقد أحس به، وهنا، هنا فقط، أصابني في العمق. فهو الوحيد تقريباً الذي أظهر هذا التعاطف مع المناطق الغامضة في. والآن عندما أقرأ هذه الروايات أرجع الأمر إلى هذا الخيط السحري نفسه: الخيال.

* * *

..وأنا أتذكره شعرت بالحنين لرؤيته، وطلبت أسأل عنه في الهاتف، وتواعدنا على اللقاء في نادي الربيع بساحة الأبيار.

ارتعشت وأنا استمع لصوته. لازال فيه تلك البحة الخفيفة، والعناد، رجل معاند قلت، يعاند كل شيء: الحياة والموت ويلعب معهما لعبة التخفي، من سيمسك بالآخر في النهاية؟ لا أحد يدري.

ذهبت وجلة، مرتجفة، كما لو أنني عريانة، أو تعريت فجأة

قدام العالم بكامله. وتساءلت: أهذا تأثيره عليَّ، يحيلني على البراءة والشفافية بهذا الشكل؟ يحيلني على ما هو عميق في: صدق الإنسان مع نفسه.

كنت متأكدة من وجود شيء غامض بيننا. لا نفهمه ولا يفهمنا هو أيضاً. لم أنزلق لكلمة حب، هو قالها مرة. مرة واحدة فقط، لكنه صمت بعدها، أو تراجع أو شعر بأنه لن يفهم. أنا فهمته. فهمته جيداً. فهمت أنها كلمة تقال في لحظة مكثفة وغريبة ولا تشبه كلمة حب التي قد تقال في غير موضعها، أو تكرر حد الابتذال. فهمته، ولكن، لا أنا ولا هو، كنا نرغب في قطع نفس الطريق، في الذهاب نحو نفس الهدف.

من أيام الجامعة، من لقائي الغريب به في تلك الرحلة، وليالي السعيدة معه، غرقنا في الجنس والحديث في الأدب. وتمتعنا حقاً. كانت نيتي سيئة ولكن معه تكشفت لي حقيقتي العارية، وبدا كضوء يتسرب خفية إلى عمق مهجور ومظلم وكئيب. لم أهتم لحظتها بتحليله. فقط انتابني شيء كالرجفة العميقة التي يشعر بها الواحد منا، وكأنها ذروة النشوة. وكأنها شيء يترسب عميقاً في الداخل. يمضي إلى آخر نقطة في الذات ويمكث بداخلها. وكنت متأكدة من أنه رسم أثره في وسيبقى.

كنت سعيدة وأنا أسرع خطاي لألقاه، ومن صوته عرفت أنه يبادلني نفس السعادة. ثم التقينا. فوجدته أكثر صفاء من ذي قبل، نحيلاً بعض الشيء، سألني متشوقا «كيف أحوالك؟» وأجبته بأني بخير، وأن حياتي تسير على ما يرام، وراح يطرح عليَّ أسئلة كثيرة، أو كل ما كان يخطر على باله. باريس، العمل، الحب..ولم أقل له كل شيء. لم أقل له إني تزوجت. وسألته

بدوري عن منيرة، فرد بأنها بخير، وقال لي:

- رفضنا أن نتزوج في مثل هذه الظروف.

ثم أضاف ممتقع الوجه:

- أنا الذي رفضت في الحقيقة. لم أقتنع بأن الحياة يجب أن تستمر بالرغم من كل شيء.

- وماذا قررتما؟

- غضبت مني المجنونة وتصورتني أرفض علاقتي بها، ولكنها هدأت واقتنعت بفكرتي أخيرا.

- أين هي الآن؟

- عادت تكمل دراساتها الجامعية العليا. وتحصلت على منحة لإسبانيا. تصوري: منذ خمسة أشهر لم أرها. تكلمنا فقط في الهاتف مرتين. يبدو أنها سعيدة في عالم أجدادنا الأندلسيين.

وأخبرني بأنه عمل كمترجم لمدة سنتين في شركة أمريكية تهتم بالنفط في الصحراء، وأنها كانت فترة تفكير عميق في حياته وأهدافه، وأنه بالرغم من عبثية هذه الحرب إلا أنها جعلته يتجذر في تربة هذا البلد، وقال موضحا:

- كما تذكرين نشطت قليلاً في السياسة، بل قولي كنت حالماً سياسياً. لقد كنت رومانسياً في علاقتي بها. مثالياً جداً. مثل منيرة تقريباً، ولكن بعدما حدث لزملائنا من تعذيب عرفت أنني لست شجاعاً لهذه الدرجة، وأنني لا أقدر على تحمل أي تعذيب مقابل أفكاري المثالية تلك. ترى من كان سيقتنع بها حقاً أو يفكر في تطبيقها ببلادنا؟

ونظر إلي عيني بعمق وقال:

- لا أدري لماذا شعرت بأنك كنت تفهمين الواقع أحسن منا.

«حقاً» قلت متفاجئة بملاحظته، وهو يكمل حديثه:

- أقصد لم تكوني تؤمنين كثيراً بالعمل السياسي. أليس كذلك. كنت تحضرين الاجتماعات دون أن يكون عقلك ووجدانك حاضراً معنا.

- صحيح. ربما لأنني عشت حياة مختلفة. ربما لأنني شعرت بأن ما نفعله كان مجرد نزق وطيش شباني.

- لا أشك في ذلك الآن. بعض زملائنا الذين عذبوا تغيروا جميعهم تقريباً. أعرف أربعة التحقوا بسلك الأمن، واثنين صعدا للجبل مع المتدينين، وآخر لن تصدقي بأنه صار مسؤولاً في الحكومة. شاهدته على شاشة التلفزيون مؤخراً يخطب في مؤتمر حزبي كبير، ويقول كلاماً مفرغاً من أي معنى. ربما شخص أو شخصين فقط بقوا في المعارضة، ولكن ما نفعها يا ترى في بلد كبلدنا؟

أخذتنا أمور السياسة والبلد إلى عالم لم أكن أرغب في الحديث عنه. مر الوقت سريعاً ولم نشعر به. وجدتني أنصت له بانتباه وخشوع. كان حديثه ممتعا وجذاباً وآسراً أخذني معه لموجاته الصافية، ألحانه العذبة، وبحاره المشعة بالأمان والسحر من دون نهاية.

في رأسي دارت الاحتمالات كلها. زوجي في مهمة لا أعرف عنها أي شيء ولن يعود إلا بعد أسبوع، وامرأته في مدريد بعيدة عنه. هل كانت فرصة للغوص ثانية في عالم يجمعنا مرة ثانية ويوحدنا في هول عاصفة النشوة وذرواتها المرتفعة؟ هل سيقدم على شيء كهذا؟، أم أن سياق المغامرات تغير بالنسبة له. سياق الطيش والنزق والامحاء في فوضى الحياة وملذاتها؟ ربما أنا من

بقيت على نفس الحال، أما هو فكان يبدو متعباً. غارقاً في حزن أيامه التعيسة. منتشياً ببعض الأحلام التي يتحدث عنها كسراب. ربما تغير. تكسر مثلما تكسر الكثيرون في دوامة هذه الحرب. ربما يقبل أن يبادلني في انكساره سعادة مؤقتة. ولحظات تبهج جسدينا وروحينا معاً.. ربما.. هكذا كنت أحاور نفسي وإذ بي أسمعه يقول:

- سعدت بلقائك حقاً، وفرحت كثيرًا برؤيتك مجددا، ولكن يجب أن أذهب إلى العمل.

لقد كسر فجأة نشوة لقائي به. هشمها تهشيما فصحوت مما كنت سادرة فيه، واعتذرت عن أنني أخرته عن عمله الذي كان ينتظره، وقام ليغادر لكنه عاد مسرعاً، وهو يخرج من محفظته كتاباً:

- نسيت أن أقدمه لك في البداية.

فإذا به كتابه، روايته، قصة كتبها بقلمه، وعنونها بـ«سأذكرك حين تموتين» وبخط يده كتب لي إهداء «الغالية ليليا.. شهوة القسوة في سكرة النشوة».

هل تعمد أن يكون كلامه ملغزاً. هل تعمد أن يبعث لي برسالة يتقدم فيها برِجل ويتأخر بأخرى؟ أم تراه كثف أشياءه في لحظة الماضي الذي طمره وما بقيت منه إلا ومضات تَحرق، وأنوار تُشعل لتطفأ؟

* * *

مزقتني أحاسيس غامضة وهو يتركني ويذهب. يتركني مع روايته تلك وحيدة كشجرة ميتة في ساحة جرداء. وحيدة إلا مع نفسي،

وحيدة ولكن ممتلئة به، هو فجأة، أشعر نحوه بشيء كهذا، شيء قوي، غريب، يستنفر حواسي الروحية، وجوانبي المادية في الآن نفسه. بقي وهجه يشع ويتعالى، يرحل بي ويسافر كأنني ولدت هكذا في عينيه الصامتتين المكتنزتين بومضات حلم، وذكريات سعادة، وعناصر هي خليط من الأمل والثقة في المستقبل. أملي فيه أو أمله هو في الحياة. لست أدري.

لم أتحرك من مكاني بنادي الربيع. رحت أقرأ روايته، فاجأتني أنها تبدأ بحرف لام. (رسالة طويلة في الحب والجراح). هكذا وضع لها عنوانا فرعياً. روايته سحرتني، وكل كلمة فيها، كل جملة شطحت بي في أرضه الموعودة، وجنته المحمومة.

تساءلت بعد ساعتين أو أكثر وأنا أتممها: كيف استطاع أن يحكي عن ذلك الشيء الأسود الذي بداخلي؟ رآه، لقد تجلى له في أول ليلة، عرفني على حقيقتي بشفافيته وصدقه. تعريت أمامه جسدياً فإذا به يراني عارية من الداخل. كلماته وجمله ولحظات تفتح ذاكرته المنسابة كنهر من أحلام وأحزان هاربة من قطرات الحياة التي تسقط في كل لحظة وتجرفها الأرصفة إلى مستقرها الأخير.

بقيت وجلة. مترددة، غير قانعة بأن الرجل كان يعي كل شيء، كان يعرف عني كل ما لم أفصح عنه.

«.. رآها في البار، كانت لام جالسة مع ذلك العسكري الذي يرتعد لذكر اسمه أي شخص، ولكن كانت تبدو كحمامة سلام وديعة، صورتها أمامه، كأنها الوحيدة التي لا يثير فيها اسمه أي هلع. لقد ركلتهم جميعا بنظرتها الواثقة من نفسها .«لام» كانت تعرف أنها قد فعلت أقصى شيء. وارتكبته، وقامت به. وأن أي

شخص، حتى هذا العسكري الكبير، لن يقدر على أن يهز شعرة من رأسها. كنت أبصرها من زاوية مظلمة في البار. لم تكن تعرف أنني أراها، ولكن ليتها تعلم أن قلبي معها. قلبي يحبها ويدعو لها ويخشع لمجرد ذكر اسمها»..

فجرت في روايته أسئلة مثيرة ومخيفة ومربكة، ولكن تركتها بداخلي صامتة، ساكنة، ورحت استعيد بلذاذة مقاطعها الجميلة وموسيقى جملها المبهجة، ورنات كلماتها المثيرة. وعدت للبيت مشحونة وكأنني خلقت من جديد، كان يمكنني تسمية كل تلك النشوة بالحب. لكني تركت للقدر ـ كعادتي ـ كلمة الفصل الأخيرة.

* * *

عاد مسعود بعد طول غياب، عاد مشتاقا إلي، ومارس معي الحب بسرعة في الفراش، تركته يأخذ لذته دون أن أتجاوب بشكل كامل معه. ولم يكن ينتظر مني ذلك هو أيضا. فعلها وقال:

«معذرة ولكن سأغيب مرة ثانية»، ولم أسأله «ماذا تفعل؟» ولا «متى تعود؟». تركته يحمل حقيبة ملابسه من جديد وينصرف. لم يكن مسعود ينتظر معجزة تتحقق فأحبه، كانت خبرته في الحياة وتجربته الطويلة في العمل تسمح بأن يقرأ خفايا الناس قبل أن تظهر على صفحات وجوههم. كان يدرك بأنني أتحداه في أكثر من موقف، وأنني لن أقبل أن أتنازل عما أشعر به في داخلي، غير أنه لم يكن يتوقع حتماً أن أحب شخصاً آخر. ولا أنا كنت لأتوقع ذلك، وكيف يحدث لي أن أتوقع من ذلك الرجل الذي ظننت أنني تركته لقدره الخاص ينعم به في حب عميق ومثالي مثل ذلك

الذي جمعه بمنيرة؟ ولولا الرواية لما كان سيداخلني أي شك في أن حبه لها كان الأقوى، وهو الذي سينتصر. لولا «لام» هاته التي حكى عنها بشغف وجنون، بهيام وذبول، كيف كنت اعرف؟ أنا التي تركته من زمن بعيد ونسيته في ذلك الماضي الخاص به. ماضي زمن أفلس وانتهى أمره وضاع في غياهب الحرب التي فجرته ذراتٍ صغيرة، وكسرت صخوره وحولتها لرمال مشتتة ومجهولة.

(3)

توقفت عن التدوين لفترة قصيرة.

وها أنا أعود ثانية لكتابة ما يبدو لي مثيراً ومهماً في حياتي.

طبعا أنا سعيدة لأن الروائي سمح لي بمساحة أكبر كي أخط ما تبقى لاصقاً بثنايا الذاكرة، وما تأصل في قيعانها البعيدة.

لشد ما يصعب على الواحد أن يحفر في ماضيه البعيد، والقريب منه. لشد ما يشعر بأن خلاصة الأمر ليست هي ما كان يتوقعها من حروفه الأولى.

يبدأ كل شيء بالأحلام، ثم يجيء زمن السقوط البربري المتوحش. ثم تنفلت عقد السبحة، وتتبعثر، تتشتت بنا الحياة، ونتشتت بداخلها. وفي ثنايا التشتت، لا يمكن معرفة ماذا كان يجدر بنا أن نفعل؟ وما الذي كان مهماً أن نلتصق به كخلاص؟

عندما أتذكر تلك السنوات المخيفات، أتساءل إن كُنت واعية حقاً بحدود تجربتي في الحياة؟ إن كُنت أعرف وأفهم طبيعة ما كنت أُقدم عليه بجرأة، ومن دون حسابات، لا كبيرة ولا صغيرة؟

سأجيب الآن بلا، وقد وصلت إلى لحظة يمكن تسميتها بنقطة الاستفهام الكبرى في حياتي.

لقد شعرت بالزمن يمر، شعرت بعجلته وإيقاعه المرعب، شعرت بأنه كعجلة تطحن من يوجد في طريقها، ولكني لم أكن خائفة من الموت.

لم يكن الموت مزعجاً لي، بقدر ما كنت مرتعبة من موت

الآخرين أمامي.

موتهم هو الذي كان يعنيني في النهاية. يصيبني بدوار مشوش، ويطرح في ذهني أسئلة مربكة. أسئلة لانهائية. أسئلة في جوهر الحياة نفسها.

كنت مقتنعة بازدواجيتي وانفصاميتي تقريباً، وبكوني أمتلك رؤيتين منسجمتين، تجمعان الليل بالنهار، والسواد بالبياض والخير والشر، وهكذا دواليك. كنت أعيش وفق منطق مختلف عن كل من وضع حدوداً بينهما، عمن تسيج برؤية واحدة، وتخندق في جبهة وحيدة.

كان العالم كله معقداً في رأسي بما يكفي لكي لا أزرع في قلبي المزيد من الشكوك، ولكنني بقيت حائرة، مترددة، لا أستخلص أي عبرة من كل ما يحدث لي، أخّزن التجارب والإخفاقات، أتلمس طريقي في وحدة الليل وكآبة النهار، وأنثر عمري في الملذات التي تسكن قلق الجسد والروح.

تركت نفسي أعبر الحياة كما يعبرها الآخرون، غير أنني كنت أعلم أن القدر قد اصطفاني لأقوم بدور، أو لأكون في وسط العقد، لا كأميرة، ولا كبطلة، ولكن كشاهدة على تاريخ ما، وزمن ما، وعصر ما.

ولعلي لهذا قبلت دعوتك أيها الروائي فانخرطت في لعبتك أكتب عما عشته، ورأيته وتلمسته وأحسسته وتجسد طوال مشواري القصير والعابر في هذه الدنيا.

قبلت ولم أجادل نفسي كثيراً إن كان هذا الذي سأفعله سيكون صالحاً لشيء، أم إنه سيكون فقط حكاية من بين عشرات الآلاف من الحكايات التي تقرأ وتُنسى بعدها، أو لا تحكى إلا لتزجية

الوقت، وملء ساعات الفراغ.

ومع ذلك لم يثنني هذا عن القبول بالكتابة. لعلي في جانب مني كنت أراني أصلح لمثل هذا الدور، ولطالما شغفت بحياة من يكتبون ويدونون، ولربما كُنْتَ على علم بالأمر فدعوتني لأجسد حلماً قديماً راودني مرارا، لكنني رفضته، أو أخرته، أو لم أر في نفسي ما يشفع لي لارتياده، بالرغم من شغفي بالقراءة منذ حداثة سني كما تعلم. وهذا الشغف كان يتابعني ويكبر معي وبقي وفيا لي على عكس أمور كثيرة أخرى خانتني، أو هجرتني، أو تركتني لحال سبيلي.

* * *

توقفت في المرحلة التي ظهر فيها حبيب منيرة الغالي، وقد يبدو الأمر غريباً أن أناديه هكذا، وليس باسمه، والحق أنني لا أدري السبب، ولربما ارتضيته لها، ولم أرغبه لي، أو أحببت علاقتي به من خلال علاقتها به، أو أن الحب يكون جميلا ومثيراً عندما يكون خاطفاً. عندما يأتي بشكل مختلف، ومن زاوية غير منتظرة، عندما يهب كريح عاصفة أو كزلزال مخيف أو كقوة هابطة من شاهق، ونازلة تسحق عظامنا المنهكة وأرواحنا الصغيرة غير المحصنة.

لم أكن أنتظر الحب حينما نزل عليَّ. لم أكن أتوقعه أيضاً، تصورتني امرأة لن تُحِب، وربما تُحَب، أو كان ذلك أكيداً فحبهم كان موجوداً، ولكني كنت هاربة منه، لاهثة خلف شيء آخر، أنتقم منه، ومنهم، ومن كل واحد يقول إنه يُحب، أو أَحَب، ولم أنظر للأمر على أنه خلل في نفسي، بل خلل في الحياة التي

نعيشها وتزوق لنا أموراً على أنها جنة من السعادات وهي في الحقيقة سرابات وأوهام.

والآن أقول ما ضرني لو آمنت بالحب، أو اقتنعت بأنه وهم أجمل من أي حلم حقيقي يمكن تحققه والعيش فيه؟ ما ضرني لو جاريته وجريت خلفه وتشبث به كما يتشبث الغريق بأي شيء يصادفه في صخب الأمواج المتعاقبة عليه؟ الآن أقول هذا، ولكن عندما شعرت بتلك المشاعر نحو حبيبها الغالي لم أفكر في المسألة على هذا النحو، لم أحللها ولم أفكر فيها بعمق. أعجبني الحب والمشاعر التي يولدها. أحسست بحاجة لشيء يدثرني بلطف، ويحميني بعمق، ويوجه خطواتي نحو السلامة.

كان ذلك يعني لي شيئاً من الوقود لأستعيد حيوية فقدتها بزواجي بمسعود، بدخولي بيته وعيشي فيه، بقبولي بمنطق البقاء داخل عالم ليس عالمي، وبجدران أرض لم تكن قط أرضي.

أتكلم عنه الآن هكذا، لكني أيامها لم أكن نافرة من مسعود تمام النفور، ولم يكن يثير فيّ شجوناً كالتي تغمرني الآن حين يخطر اسمه على بالي، فالحق أنه كان شهماً ونبيلاً معي، وكان يحبني دون شك، نوع حبه بقي غامضاً بالنسبة لي. كان يبدو كأب رحيم، مشاعره نحوي مليئة بالحنان، ولكن مدججة بوصاية الأب وسلطته التي لا ترحم. كان يترك لي كامل حريتي، أفعل ما أشاء. غير أنه لا يفتأ يردد أمامي «حافظي على شرفي فقط». وفيما عدا ذلك شرفه كان هو المهم واسمه هو الأهم.

لم تكن تنقصني الماديات. كل شيء أريده أحصل عليه. مسعود أصبح ثرياً بالفعل، صفقاته الكبيرة لا يتخيلها أي مواطن بسيط من أبناء هذا البلد التعساء الذين يرزحون في الفقر والفاقة والجهل

وينعمون في سبات طويل، وليت الأمر توقف عند هذا الحد، فهم غير آمنين، لقد سُلب منهم كل شيء: كرامتهم وحريتهم وشرفهم، وصاروا يذبحون كالنعاج ويسلخون في المذابح العمومية، وتغتصب نساءهم أمام أعينهم، وهم كالفئران الهلعة المختبئة طوال الوقت، لا تفكر إلا في إنقاذ ما تبقى فيها من رغبة في العيش، رغبة ميتة هي الأخرى، وروح متآكلة وحياة بسيطة.

بدأت أنظر للعالم بمنظار مسعود. الحشرات الصغيرة تلك، النفوس الميتة والمهجورة، ما جدواها في الحياة؟ يموتون إن لم يكن بآلة الحرب ويد البربرية المتوحشة فبأسوأ الإهانات وأقذرها. سيأكلهم المرض والشلل والطاعون والجرب والجوع والهزيمة الأخلاقية، كل ذلك بعد أن يتآكلوا يأكل بعضهم بعضاً خوفاً على نفسه أو حسداً للآخر أو أي شيء من هذا القبيل.

لم تكن الصورة مرعبة من زاوية مسعود الذي كان يقول:

«دعيهم إنهم يستحقون ما يحدث لهم؟»

فاسأله «كيف؟ كيف يستحقون ما يحدث لهم؟ ماذا فعلوا حتى ينالهم عقاب كهذا؟»

فلا يجيب، كعادته، كما لو أنه يخبأ في أعماقه أحقاداً دفينة غريبة قديمة لن تخرج على لسانه قط، يتكلم في داخله، يردد الكلمات ويلوكها بينه وبين ذاته، العالم مغلق في داخله، يبدأ وينتهي فيه. تصورت أنها تربيته العسكرية، عالم الجيش الذي كبر فيه، عالمه الخاص والسري والمرتب والمدجج بالتصورات المختلفة عن تلك التي يمكن لأي شخص أن تخطر على باله أو يفكر فيها، غير أنه كان ذكياً، كنت أشعر بذكائه وفطنته، ولعلّي لهذا لم أكن أفهمه جيداً، ولم يخطر على بالي قط أن أهنأ ذات

يوم فأقول: لقد فهمته كما يجب، فهمته كما هو على حقيقته، إنه عالمان مختلفان، باطنه غير ظاهره، جوهره غير قشرته، وكل شيء مركز في نظرة عينيه، في طريقة كلامه التي تبدو منظمة كخيط من النمل يسير نحو هدف وغاية محددين.

سألته مرة: «أتحب الجزائر؟»

ولم يستغرب سؤالي، قال:

«نعم، أحبها أكثر مما تتصورين»

ولكن فيما بعد سألته عن طبيعة هذا الحب، عن نوعيته، إذ أنه أيضاً كان يحبني ما في ذلك شك، وقلت:

«هل تحبني مثلما تحبها؟»

ففهم مغزى سؤالي، وقال مبتسماً بطريقة تنم عن عمق بعيد:

«نعم أحبها مثلما أحبك، أحبها لي، لي وحدي»

«وماذا تفعل بعشاقي الآخرين؟»

رد من دون مزاح:

«سأقتلهم».

لم أنتبه بسرعة لخطورة كلامه، وخطورة نواياه، لم أنتبه حتى سألته:

- أرجو أن لا تكون جاداً فيما تقول.

فرد علي بنفس تقطيبة الوجه الأولى:

- اعتبري كلامي جدياً.

كنت أتسلى بأسئلتي فقط، ثم شعرت بخوف ما يتسلل من أسفل رقبتي حتى أعلى رأسي، ويتركز في مكان ما من دماغي، وأظنني نمت بعدها، غير أنني بقيت أردد كلماته بيني وبين نفسي. مشاعري نحوه تجمدت. إن أنانيتي لم تكن بهذا الشكل الفادح

الخطورة، وفجأة رحت ألعنه «من يحسب نفسه هذا اللعين حتى يمحوا من روحه أي قدرة على تفهم طبيعة الآخرين، ومشاعرهم، ويتصور أن أرضاً بأكملها هي ملكه، وأن حبه هو الأصح والسليم؟»

يا ليته كان حباً سليماً وصحيحاً. كنت أستطيع مواجهته بأن أقول له «كل ما يمثله هؤلاء الأشخاص هو ما وصلت إليه البلاد من حرب. إفلاسكم وسوء تسييركم هو الذي قادنا للهاوية. حبكم المفرط والأناني والغريب والذي يختلط مع مصالحكم هو الذي كسر مُثل الناس وأحلامهم»، غير أنني لم أكن مجادلة ولا عنيفة. لقد شعرت فجأة بأشياء غريبة نحو الكومندان مسعود. نوع من الكراهية المتوحشة التي راحت تنزرع في قلبي بسرعة البرق، وتأخذ لها مكاناً مركزياً، فيما كان الحب يطرق بابي بشيء من الدهشة والابتهاج السعيد نحو ذلك الرجل الذي كتب عني روايته الأولى وسماني «لام».

خفت عليه، وبسبب ذلك لم أطلبه حينها. بالرغم من لهفتي لرؤيته من جديد، والحديث معه مرة أخرى.

كان لقائي الأول معه على غير المتوقع، وعلى بساطته مثيرا لفيضان من مشاعر الحب والعشق الخفيف الذي ينزل كبرد مسالم على الجسد فينعشه، لا أقل ولا أكثر.

كنت بحاجة لتلك المشاعر. بحاجة لأن أندمج في معنى إنساني عميق مليء بالروح ومفاتنها، مليء بالتوتر والسعادات البسيطة.

كنت بحاجة إليه. هو الذي فهم وحده من قبل ذلك الشيء الأسود الذي فيّ، وهو الذي أوّله برؤيته على أنه ألم لا غير. إنه

هو الذي يبعثني الآن في لحظة موات داخلي مفزع حية من جديد.

كنت مَدينة له بأشياء رمزية من هذا القبيل، ولكن كنت بداخلي أفهم هروبه مني، قلقه عليَّ، تعبه من اللحاق بي، جريه البعيد خلفي. كنت قد شعرت بهذا من خلال روايته.

ووددت لو سألته فقط لماذا تنتهي «لام» بميتةٍ مرعبة في روايته؟ لماذا تنتهي مقتولة في هاويتها التعيسة متروكة للكلاب تنهش لحمها، وتترك عليه بصمات أنيابها الجائعة.

لماذا ينتقم منها بهذا الشكل؟

من دفعه ليشعر بأنها هالكة لا محالة؟

كيف رأى ذلك وفهمه وقرأه؟

أسئلة يولدها الخيال في منطقة ما من الدماغ فتبقى تشتغل، وبقدر ما كنت، أو أصبحت، بعدما داهمتني موجة من الأحاسيس بالكراهية تجاه مسعود، بانت لي صورة ذلك الرجل حلماً جميلاً ومشرقاً يأخذ طريقه إلى وجداني بأكمله. فرُحت أستعيده بحيويته ونشاطه، بصمته وقهره، برجولته وانهياره، بعشقه وخوفه، رحت أعيد قراءة ما كتبه لنفسه أو لغيره.

كنت أطرح دائماً مثل هذا السؤال: لمن يكتب الكاتب حين يكتب؟ له أم لغيره؟ وهل هناك فرق أو تراتبية في الأولويات؟ كنت باستمرار مقتنعة بأن الكاتب في أعماقه أناني. حتى في حبه للخير، تراه ينطلق من أنانيته تلك، وقد يكون ذلك إيجابيا. هو لايرغب في الألم لذلك يتمنى الخير، يكره الشر فيطمح للخير.. يصنع يوتوبياه في رأسه، يوتوبيا خلاصه. يصنعها من كائنات الحياة، وقد أعاد صياغتها ورسمها وخلقها من جديد، فتحولت إلى لحظات حية وبركانية متفجرة، وقضايا صارخة أو مستصرخة،

وأنفاس لاهثة مستغيثة.

إنه يقلد الله في كل شيء.

غير أنه يعرف بأنه منذور بداخله لهاويته السحيقة، وعندما يتأمل فراغ كل شيء. - البقعة السوداء التي إليها ينوب ويتوب - فهو يخاف من أن كل هذا الذي أمامه وخلفه، مثله مثل الأحلام والكوابيس حقائق غامضة، ليس فيها شيء مادي يؤكد وجودها أو واقعيتها في النهاية.

ها أنا أتفلسف كما لو أني أنا التي كتبت تلك الرواية، وصغتها وفق نزواتي ومخاوفي وطيشي وعبثيتي وروحي القلقة التي لا تستكين لأي قرار.

تركت الوقت يمر، يمر في وحدتي طالبة أن تمنحني السماء قوة لنسيانه.

رغبت في أن أقبل قدري الأخير كما هو مسعود، فأنتهي معه وينتهي بدوره معي.

ننتهي معاً. من الجحيم إلى الجحيم. نصيبنا من هذه الدنيا. نتنعم في مادياتنا ونموت على جبهة أرواحنا.

كثيراً ما قلت: الحياة لا تحتاج لكل هذا «التفلسف»، ولكن بعض الناس، وأظنني منهم، يغرقون دائماً في لجج من هذا القبيل: حوارات داخلية، مونولوجات طويلة، وهذيانات عن الحق والباطل، والوجود والعدم، وما هو كائن، وما هو غير كائن...

لماذا كنت أو ظللت أتمنى أن يشاركني مسعود حيرتي وقلقي؟ ولكن مسعود ظل كعادته مشغولا بنهب ما تبقى في البلد، وحراسته من أعدائه الوهميين.

قلت «هل كل شيء بثمن؟»

«وماذا يحدث لي غير دفع ثمن لجريمة ما؟»

كان يصعب عليَّ تحديد ما اقترفته من ذنب. هؤلاء الذين بلا ضمير فعلوا المنكرات في الملايين من الناس بأنهم ارتكبوا جرائم بشعة يستحقون عليها على الأقل عقاب رؤوسهم. أي آلة جهنمية تحول بعض الناس إلى أصنام وخشب لا يشعرون بأي إثم ولا بتأنيب ضمير؟

لا بد أني كنت مثالية في بعض الأشياء.

كنت مثل «لام» في روايته:

«لم تستطع «لام» أن تكون في النهاية غير ما هي عليه. امرأة تتوق للجمال الذي يسكنها عميقاً، لروح سماوية متطهرة من كل دنس، رغم أنها كانت غارقة فيه، متوسخة بأدرانه، وكانت ملوثة من أخمص قدميها إلى قمة رأسها، لكنها بقيت تعلم أن روحها نقية. روحها التي لم ولن تتلوث ستظل كذلك. ستبقى متعالية عن حركتهم المادية، وعن عقارب الساعة التي تضبط وجودهم جميعاً».

تساءلت: «هل حقاً أنا «لام» هذه؟ هل أملك هذه الصفات بالفعل، أم اخترعها ذلك الرجل ليبرر عواطف امتلئ بها، ومشاعر انتفخت في قلبه؟ ولكن حتى لو لم أكن بهذه الصورة، وحتى لو كانت صياغتي على منوال روائي مميز وغريب، فإني كنت مَدينة له لأن كلماته تلك أيقظت في مشاعر رفيعة، وجعلتني أنظر من جديد للحياة بعينيّ تلك الطفلة البريئة».

كان يلزمني ذلك لأستخرج من كهوف روحي بقاياها البعيدة والمتناثرة..

بقايا الشفافية والبراءة.

مناطق الضوء الجميلة في،

تلك التي رُحت فجأة أرغب في الاحتفاظ بها، والموت عليها.

* * *

أقلب صفحات روايته، وأنغمر بين أحرفها وأسطرها وكلماتها وأعيش بداخل تلك اللحظة المتخيلة كائناً آخر.

«يسألها:

- يا «لام» لماذا تفرين من السعادة إلى الموت؟

فتصمت، ويبقى هو يحدق في عينيها المكهربتين بحزن مضاء كسيوف مشهورة في وجه عدو لا يرحم، لاشيء غير الحزن، وبداخله نقاط فارغة، ضوء بعيد بحيث انه يتلاشى بمجرد أن يلاحظ. هل يرقد العدم في داخلها؟ وما هو العدم؟ اللاشيء، الشعور باللاجدوى، والضياع أيضاً. حيرة مستكينة لنفسها.

«لام» لا تجيبه. هو فقط يسأل، ويعيد أسئلته بنفس الكلمات، وعلى نفس المنوال، يعرف أنه وهو يسأل يدخل معها في لحظة مطلقة شبيهة بعدمها نفسه. يشعر أنه معها من طينة واحدة، أن بداخله يرقد شيء مقهور، مغلوب على أمره، لغة لا تتكلم إلا بصمتها وحزنها نفسه. يعرف أن الجدار موجود، لكن خيط التواصل بينهما مستمر.

يكرر بعبثية سؤاله ويندفع نحوها ليقبلها، فتدفعه عنها بلطف:

- لا ليس الآن

- متى؟ متى؟

- حين يحين مقام ذلك؟

- لا أستطيع الانتظار.. شوقي لك يلتهب ويحرق.

- أعرف، ولكن يجب أن تنتظر.

يصرخ في وجهها بألم وحزن وخوف:

- لماذا أنا فقط من عليه أن ينتظر، والآخرون يفعلون بك ما يشاؤون؟

- الآخرون ليسوا مثلك.

- الآخرون أحسن مني.

- الآخرون يقبلون أن ألبس قناعاً وأنام معهم.

فيصمت هو بدوره، ويرتضي لنفسه ذلك الهوان، ولكنه لا يسقط في نفس هاوية الموت تلك. «لام» **وحدها تعرف ذلك. لكنه بقي يدور في فراغاته الكبيرة والكثيرة دون أن يمسك خيط السر»**

أتراه موجود حقاً؟ أهي بالفعل كائن حقيقي أم إن كل هذا الذي يعيشه هو، إنما يتخيله. لطالما أحب الهجرة من عالم لعالم. هو الذي كان ديدنه أن يكتب كل شيء. في لحظة توقف الزمن، وصارت الساعة بلا عقارب. أحس بهجوم شيء قاس عليه. كل شيء توقف إلا حبها هي.. «لام» العظيمة. «لام» الروح الشقية. «لام» الجسد المترع بالعشق والضغينة».

انهمرت عليَّ كلماته وأسئلته وهواجسه وتعاساته. شعرت بأنه كان يقاوم طواحين الهواء بنفسه.

أهذا هو الكاتب: شخص مريض بأوهامه واستيهاماته وخيالاته؟

من هو الكاتب في النهاية؟ ها أنا أجاريه، وأعيد له الكرة كرتين، مستشعرة قربه مني. نموه بداخلي كشجرة عملاقة تصعد عالياً للسماء وتخترق الأغلفة والسحب والأدخنة، تتطلع إلى أعلى

مكان في القمة دون أن تعرف أين يوجد، وفي أي العالم لم يكن يقول:

* * *

مسعود كعادته يغيب ويعود، يختفي لأيام أو أسابيع أصبح ثرياً أحياناً حتى يخيل إليَّ أنه لن يعود ثانية، وعندئذٍ يفاجئني مفاريت وهو يلقي عليَّ ببعض أسراره:

- إنهم يتفاوضون معهم.

فاسأله محتارة دون فهم:

- مع من صعدوا للجبل؟

أقول له ساخرة:

- أخيراً اقتنعتم أنه لا مفر من ذلك.

- لا، أنا ضد التحاور معهم. ولكن الضرورات كما تعرفين تقتضي أن نتحاور بعض الشيء.

كان يحدثني عن صراعات القوى في مكان آخر بالأعلى، وانقساماتهم، وضرورات أن يقبل كل طرف التنازل قليلاً.

مرت سنوات الحرب كئيبة وبلا أي معنى. قُتلت حياة الناس من الداخل. عشر سنوات من العبث والانتحار. لكنها عشر سنوات من صعود وجوه إلى الواجهة واندحار وجوه أخرى للظل، مسرحهم الذي لا يرى، أقنعتهم الكثيرة. خيوط حكايتهم التي تعلموا نسجها في كل آن.

تركته يحكي لي ما يحدث فوق. يُحكي للبقية، وهو ما سينجلي بعد نهاية التفاوض طبعاً. تعرف ربع الحقيقة أو نصفها، ولكن كما يقول هو، لعبة السياسة لها هذا الوجه، غير أن الناس لا تفهم، لا تصدق، تعتقد بأن على الذين يحكمون أن يتكلموا بشفافية.

- لا أستطيعها وهو يطلق نفثته الأخيرة: «هراء».

- أعرف، خلي أقول: «هراء عليك، عليهم، بل هراء على يصرخ ؛

- لما كان مسعود يتغير أيضاً. فأن يشيخ قليلاً، وتترهل قواه، يشاؤون شخصيته فقط تبقى قوية. يقول لي:

-أعرف بأنهم يكرهونني جداً، يحقدون عليَّ، بعد التفاوض سيحاولون دفعي لكي أختفي من الوجود. هذا مؤكد. أنا من قام بالأشياء القذرة من أجلهم».

كان خائفاً جداً من أن تدور عليه الدائرة. أرسل أولاده جميعهم للدراسة في الخارج، أمَّن لهم مستقبلاً في بلدان أوربية مختلفة. وترك لهم ثروات معتبرة في بنوك لا يدخل إليها الشك من أي جهة.

بالنسبة لي لم أطالبه بأي شيء.

لو سجّل على اسمي فقط هذا البيت الجميل المطل على البحر، وتركني هنا لوحدتي وخيالاتي الجديدة، لكنت ممتنة له طول حياتي. لكنه ظل مهموماً ومحتاراً، ولازمه خوف قوي خلال ما سماه بفترة التفاوض. كان يتذكر ما حدث له في أكتوبر 88 حينما أبعدوه بطريقة مشينة، بعد أن لم يعد مجدياً أن يقوم بدوره القذر في التعذيب وغير ذلك.

كان مع ذلك أكثر حذراً هذه المرة. لقد شارك في الحرب من بعيد، وليس بوصفه عسكرياً، ولكن كمدني. لن يحكموا عليه بأي شيء. إن حياته لن تتحطم بسهولة، وهو يعرف من أين يمسك الخيط، وكيف يلعب في ساحتهم أيضاً.

يعرف. كنت واثقة من ذلك. كان يعرف كيف يحمي ظهره وقد

تشعبت علاقاته، غير أنه بخبرته الطويلة في هذا العالم لم يكن عنده أي يقين، وصار ينتظر الضربة من أي جهة. كان يقول:

«اعرف لي أعداء كثراً. أعداء لم يحتملوا أن أصبح ثرياً بسرعة، وأن يكون لي كل هذا المال والجاه».

صار وسواسه الخناس، كل ليلة تقريبا، يظهر له كعفاريت ووحوش تنقض عليه ويستيقظ مفزوعا، على غير عادته..

أحضر العديد من الحرس لتلك الفيلا، وأحاطوا بنا من كل جهة.

غير أن ذلك لم يكن كافياً كان يسافر للخارج في مهمات لا أفهمها ولن أفهمها، تصورت أنه يتفاوض هو أيضاً على أمنه وحياته مع جهات خارجية. كل شيء يمكن أن يقوم به شخص كمسعود في وضع مرعب كالذي كان فيه. صرت أفرح عندما يغادر البيت مع حرسه وهو يسألني:

- هل أنت متأكدة من رغبتك في أن لا يكون لك حرس؟

فأؤكد له ذلك، وأطمئنه على أنني لن أمس بسوء، وأنني غير خائفة.

فجأة لم أشعر بأنه متمسك بي كما ظننته في البداية. كما لو كان واثقا من أنني لم أحبه قط، وأن علاقتنا الزوجية ما هي إلا غطاء لا غير، شيء يتشبث به غريقان في لحظة سقوطهما المحتومة.

«زواجي به».

قلتها في نفسي وأنا أشاهده يحمل حقائبه ويخرج، قال: سأسافر إلى لوزان ثم زيوريخ ثم جنيف.

لعله يريد أن يطمئن على دولاراته التي يخبئها في بنوكه

السرية. ربما يرغب في رؤيتها والتمتع بمنظرها المدهش.

صورته في تلك اللحظة بدت لي صغيرة. أصغر مما تصورته من ذي قبل. تضاءلت لدرجة الغياب.

أين هو ذلك الرجل الذي كان اسمه يركّع جبال الأرض كلها، وصوته يهز الأرواح القوية هزاً فيدمرها، ونظرته تذيب الجليد المترسب منذ قرون طويلة؟

تأكدت في أعماقي أننا نحن من نصنع جبروت المتجبرين؟ نحن بخوفنا وقلقلنا على الأشياء البسيطة، على الحياة التي ترتسم لنا كأفق غائم في سجن ضيق للغاية.

* * *

بينما هو يسافر أغرق في وحدتي من جديد، مكتشفة أنني بلا أصدقاء تقريباً، أحن لعالمي القديم، ولأيام نزواتي وطيشي وجنوني، وأنا أرتاد الحانات والكباريهات ليلا، وأعيش في النهار يوميات فتاة عادية.

كنت سعيدة حينها، لم أكن افهم جيداً معنى العالم ومعنى الحياة، كنت أستهتر بالقيم والتفاهات التي تضبط حياة الناس وتفكيرهم، والتي تضع لهم حدوداً تمنع عليهم تجاوزها. كنت أخترق كل الجدران الموصدة، والأبواب المغلقة، وأنا اشعر بحريتي تكبر ومساحة تفكيري تتوسع، وروحي بين صعود ونزول، هكذا هي الأشياء الجميلة، أو هكذا تصورتها، لا تعرف استقراراً أو تجمدا في أرض ثابتة، ولكن ها هي الحياة تصادفني بلوعتها تلك، ويصبح كل متحول ساكن، وكل ما كان حيرة مشرقة، وتوهاناً مستنيراً إلى صوت مخنوق، وقلب متفجع.

قلت: لست راضية. تلك كانت نعماً صبيانية أشرقتُ بها، وأشرقتْ فيَّ، لتصبح مآسيَّ الآن أكبر مني، لقد تجاوزتني بالفعل. كبرت معي. تطورت بشكل غريب بداخلي، صاحبتها في نموها دون أن أشعر بها، وها هي الآن تصبح مثل خنجر حاد وقاطع، ينتظر فقط لحظته المثالية كي يجهز عليَّ.

أحياناً أقول بأنني أبالغ، وأرجع السبب، سبب كل هذه المرارة والهذيان إلى روايته هو، حبيب منيرة الغالي، حبيبي السِّري الآن، جغرافيتي الداخلية التي احترقت واشتعلت نارها والتهبت، هُو، ومن غيره الذي فجر كوامن لحظتي ضجراً من حياة سابقة، حركات سرية غير واعية كانت تقودني بعماء نحو وجه آخر من الوجود.

لقد جعلني أتفطن لِمَا أنا عليه، لِمَا كنته، لِمَا كانت حياتي عليه، لِمَا أصبحت عليه اللحظة. شعرت بدماغي يغلي ويكاد ينفجر، قواي الداخلية تتضعضع، وتخونني روحي، تلك التي كنت أجهل عنها تقريباً كل شيء.

أستريح بين دفتي روايته/كتابه، أخلو بعمقه، وأكتشف عمقي، وأعرف أنني كنت لاهية ومبرمجة على الانحدار. مبرمجة! يا للكلمة المثيرة التي استعملها هو ليسخر مني، ليسخر من قسوة هذا العالم وفداحة جُرمه. يخلقنا ويتركنا لملاهي الزمن وعبثية الصدف ولا جدوى الترتيبات المسبقة، تلك التي نحاول أن نحمي بها قليلاً من أنوار أعماقنا، لكنها تفلس سريعاً، وتعلن انسحاقها وخسارتها في معركة الوجود القاسية.

تراني أبرر في هذه اللحظة؟

أكره التبرير يا إلهي، وحتى وقت قريب لم يكن يخطر ببالي

لثانية أنني سأواجه نفسي في المرآة، أو سأحاسبني على ما فعلت. كانت حياتي رائعة، جليلة، وعشت نزقي بأقصى جماله، وأعذب ألحانه. وغرقت في دهاليز ما يخافون وسراديب ما يبتعدون عنه بقمة توهجي وصفاء روحي.

هو على حق حينما يقول:

«الحياة بكاملها قد تساوي مثقال ذرة من السعادة»

لقد عشت أنا ذروات نشواتيي، وسعاداتي في كل لحظة. كنت في أعماق قلبي أشعر بتلك الحيوية الفاجرة، وبتلك الروح المتبصرة ببهاء ما تغرفه من ملذات وما تسرقه من لحظات. هي سرقة بالفعل لكنها مقتنعة أن كل ما هو جميل يؤخذ بالقوة.

لو ترددت للحظة فإن عالمي سيتوقف عن الحياة وقلبي ينقص نبضه.

كنت أدرك أنني أرمي بنفسي في التهلكة العظيمة لأخرج أقوى من ذي قبل.

ولكن هذه الأشياء كلها تفر مني، تهرب الآن، كما لو أنني كنت منومة من قبل، مسكرة بدواء يطيل غيبوبة الفرد، ثم صحوت فإذا بالعالم غير ما هو عليه.

إنني أسعى جاهدة لتبرير حياتي وما من تبرير ممكن. لقد حدثت وكفى، وقعت بالصورة التي وقعت بها لا غير. هكذا كان عليَّ أن أقول، ثم أخلد للوحدة، للصمت، لعري المكاشفة القاسية بيني وبين نفسي.

* * *

يطيل مسعود غيابه هذه المرة أكثر من اللازم.

أقرأ في الجرائد نتفاً عن تلك الأشياء التي تحدث عنها لي منذ شهور طويلة:

«المفاوضات جارية بين..»

لا يهتف من المكان الذي هو فيه، ولا يبعث برقيات ليطمئنني عليه، ولا يثيرني ذلك كثيراً وإن يجعلني أتساءل عن مصيره.

هل هرب نهائياً ولن يعود؟

كان ذلك من بين السيناريوهات التي وضعها حتماء لكني كنت أعرفه. إنه من النوع الذي يكره الفرار والهزيمة. يكره أن يقال عنه: فرّ للخارج. ماذا سيكون أمره بعدها؟

كان من رجال الظل، وعادة ما يشعر رجال الظل بالطمأنينة فأسماؤهم نادراً ما تذكر في الجرائد والتلفزيونات، وحتى عندما يصفون معنوياً أو جسدياً فإن ألقابهم هي التي تصفى.

قال لي مسعود مرة:

- الناس لا تقرأ تاريخها أبداً.

وعندما سألته بدوري عن سبب هذه الملاحظة، قال مجيباً:

- لو كانوا يقرؤون لفهموا كل شيء، كل شيء تقريباً.

كدت أقول له: هل تركت لهم فرصة ليقرؤوا تاريخهم. لقد زيفتموه وملأتموه بالخرافات والأكاذيب. بل تذكرت أحد الكتب التي ظهرت منذ فترة قصيرة تتحدث عن الكرامات الروحية في حرب التحرير الوطنية، كتاب صدر على نفقة إحدى المؤسسات التاريخية الكبيرة..

لو كنا في بلاد طبيعية لعوقب هذا الرجل بتهمة خيانة دم الناس الذين ذهبوا في حرب حقيقية ليس فيها ملائكة وشياطين تحارب بعضها البعض، لكنني صمت. شعرت بأنه حتماً سيقول

شيئاً مهماً كعادته عندما يريد أن يفرج على أمور اختبرها وتشكلت بداخله كقناعات راسخة.

- حرب الجزائري مع الجزائري ليست جديدة. يجب أن تعرفي هذا، أثناء الثورة حاربنا أنفسنا وبعضنا البعض أكثر مما حاربنا عدونا، صفينا الكثير من القادة التاريخيين، كنت شاباً أيامها ولكنني وقفت مع الأقوياء. هذه هي خلاصة فلسفتي في الحياة: «كن مع الأقوى تنتصر دائماً»، ولكن كيف تعرف من هو الأقوى؟ هنا شطارتك، ذكاءك، حدسك، وأنا كنت أتمتع بذلك. هذه حقيقتي يا ليليا وأنا لا أكذب عليك.

لم أكذبه مرة وحدة.

كنت مقتنعة دائماً بكل كلمة يقولها، بل بكل حركة تصدر عنه، ولكن المشكلة لم تكن هنا بالضبط. لقد كان ينتمي إلى جيل يرفض أن يشاركه أحد في الحكم. حتى لو كان هذا الآخر أقرب الناس إليه. كان ينتمي لطريقة محددة في التفكير: إما معي أو ضدي، وبفعل هذا التفكير كان العالم مقسماً لأبيض وأسود، وعندما ولد جيل الرماد. الجيل الذي لا يريد أن يشبههم، ضحوا به بسرعة. اعتبروه عقوقاً وخروجاً على سلطتهم النافذة، تعاملوا معه كما يكون التعامل مع الأعداء.

لقد أنتجوا في النهاية وحوشهم الضارية تلك التي واجهتهم. كانوا يشبهونهم تماماً، بل كانوا صورتهم الأخرى في المرآة.

* * *

غيابه الطويل لم يؤثر في.

صرت أقرأ كثيراً، وأتلهى بكتابة أشيائي الخاصة.

ذكريات قديمة عشتها في طفولتي. أيامي مع والدي، ذلك الأب البحار الذي كان يمكن لو بقي حياً أن يكون قدري مختلفاً عما هو عليه اليوم. لكن القدر خطفه، أو أخذه إلى حيث ينعم بشيء آخر.

كنت أتساءل: لو لم يمت وعاش في هذه السنوات، ماذا كان سيقول؟ ماذا كان سيفعل إزاء تقسمات البلد وانهياراته الفظيعة؟

كثير من الناس، بل الأغلبية، لا تفكر، لا توجع رأسها بالتفكير، غير أنه هو كان حتماً سيتطارح الأمر مع نفسه.

في طفولتي أتذكر أنه كان ناقماً دائماً، ما إن يعود من سفر إلى بلد متوسطي، حتى ينطلق:

«جميلة بلدانهم ونظيفة، أما نحن فلاشيء فينا يصلح لأن نفتخر به أمامهم».

أمي كانت تصرخ فيه وترد عليه قائلة:

«غربوك عن بلدك أيها البحار الصغير»

لكنه كان يرد محتجاً:

«نعم هذه هي التهمة الجاهزة».

ثمة ثلاثة رجال التقيت بهم صدفة في إحدى الحانات التي كانت تعمل فيها عاهرة من غرب البلاد. كانت تعجبني شفافيتها الزائدة، وروحها المرحة، وكنت وأنا شابة أعتبرها صديقة مقربة من عالم الليل ذاك، فكانت صديقتي الوحيدة تقريباً، حتى أنها غيرت اسمها المهني تشبهاً بي، وصارت تعرف بـ«لولا». كان جميع زبائن حانة القراصنة يعرفونها جيداً ويحبون عذوبة لسانها، وجمال حركاتها، وفتنة سقيها. كان من بين زبائنها أولئك الرجال الثلاثة، الذين كانت أعمارهم تتراوح بين الخمسة وخمسين والستين سنة.

كانوا مختلفين في كل شيء، ولكن تشعر وأنت تجالسهم أن خلفهم تقبع ذكريات كثيرة طمرت في نفوسهم، غير أنها تحتج أحيانا فتخرج وقد شربوا وشربوا، فيتكلمون في الأشياء التي تؤلمهم تلك، يجلسون ويغرقون في أحاديث في الثقافة والسياسة والتاريخ.

اكتشفت أن واحدا منهم كان يعمل بحاراً فسألته مستغربة إن كان عمل في باخرة «....» بين أعوام 62 و65 فقال «بلى»، فسألته عن والدي دون أن أفصح له على أنه والدي بالفعل، فقال «نعم أعرفه، إنه رجل طيب وإنسان عظيم»، وذكر لي ميتته الشجاعة «كلنا لم نستطع القفز لإنقاذ ذلك المسكين الذي سقط من الباخرة، وحده قفز بسرعة لينقذه لكن الحياة مكاتيب.. الحياة مكاتيب يا بنتي» ودمعت عيناه، ودمعت عيناي أنا أيضاً حتى أنه سألني «هل يقرب لك؟» فأخبرته بأنه كان جارنا.

حدثوني عن الحقيقة التي لم تقل للجميع. في جلساتهم التذكارية تلك «لقد حاولنا تنبيه الناس لما يحدث من انزلاقات خطيرة، كنا نوزع المناشير، وننظم حتى التجمعات الصغيرة، كنا نخطب ضد الحكم الفردي حتى جاءنا العقاب الساحق فقذف بنا في السجن وأشبعنا ضرباً وهراوات» ولقد عذبني شخص كان معي في حرب التحرير: تصوري ذلك، قال لي «أنت لم تعرف كيف تختار جبهتك.؟» فسألته «ما هي هذه الجبهة التي كان عليَّ اختيارها؟» فرد يسخر مني «جبهة الأقوياء يا حمار»..

الحقيقة أُغلق عليها الباب، وخُتم عليه بالشمع الأحمر، وتُرك الناس يجرون وراء قوت عيشهم، لكن أولئك الرجال الثلاثة كانوا يتحدثون بأسى وألم من صميم القلب:

«نعرف أن الحقيقة حُجبت، لكن التاريخ سيقول كلمته حتماً»

لم أكن واثقة من هذا الحكم. من فكرة أن يتغير شيء ما.

ذكرى والدي وحدها جعلتني أسترجع لحظات صفاء كتلك، مرت عابرة في حياتي. مع نوع آخر من أبناء بلدي كان يمكنه أن يغير مساري، لكن ذلك لم يحدث

* * *

لا تتغير حياتنا كما نرغب في ذلك يومياً.

وكنت يومياً في وحدتي تلك، في لحظات انغلاقي على نفسي وفزعي من كل شيء، أتساءل هكذا إن كان هناك نقاط في ماضيّ أهملتها، أو تركتها تُغْمَرُ في طيات النسيان الذي يمارسه واحدنا بوعي غريزي من أجل البقاء صامداً أطول مدة في الحياة.

وعي غريزي، وعي مُدرك، ولكن غير واع تقريباً، كما لو أنه ثغرات يجب الإسراع في ردمها بسرعة، في قتلها في لمح البصر، أو رمي كل شيء فوقها كي تطمر في مكان مجهول في الباطن الغامض للروح.

تذكرت الرجال الثلاثة منذ قليل و«لولا» كذلك، تلك الفتاة الوهرانية العجيبة، والتي كانت شعلة من الضوء والنار، وبداخل أقبيتها تسكن التراجيديا نفسها. حياتها سلسبيل من المشقات وسلاسل من العذابات.

كنت أبصر فيها الضوء، الموت، القوة المتحدية، الرغبة في التلاشي والفقدان. كانت مُقاومة حتماً وهي تهرب من بيتها بعد أن لم يعد لها من خيار آخر. حملت جسدها المنهك وجنينها يتبرعم في بطنها، وهربت من البيت في الصباح الباكر.

جاءت إلى لجزائر العاصمة وبطنها يتململ، ولم تكن تعرف ماذا تفعل غير أن تستسلم لشيء اسمه القدر، تنتظر منه قليلاً من الرحمة، أو كثيراً من الشفقة والحنان.

يومان في العراء، ثم كان لا بد أن يحدث شيء ما وتلتقي بذلك الرجل الذي عرض عليها أن تأتي معه إلى البيت، فوافقت.

شرحت له القصة بكاملها فتعهد بطيبة وخبث ممزوجتان في وجهه الماكر بأنه سيساعدها على أن تمكث معه وتكون خليلته.

وافقت. لم يعد مهماً الآن أن تحافظ على براءة غريبة في مجتمع سيتهمها لا محالة، أو حكم عليها بكل قسوة أنها لم تعد من بين أعضائه الشرفاء.

وافقت، وأسقطت جنينها برضاها طبعاً، ومكثت عند الرجل، وقالت إنه كان يتعامل معها بكل حنان ورأفة، وكانت بالمقابل تستجيب لكل نزواته الجنسية.

تعلمت كل شيء في الجنس معه، ومارست كل أشكاله، فالرجل كان حريصا على تحقيق رغباته بطرق مختلفة، وألوان متعددة.

كان أحياناً يأتي بالعسل فيغمر كامل جسدها به، ويقوم بعدها بتنظيف جسدها بلسانه.

وكانت تراه يقرأ حتى بعض الكتب المثيرة مثل «الكاماسوترا» و«الروض العطر»، وكانت تشعر أنه رجل مثقف يملك كثيرا من المعلومات بالرغم من أنه نادراً ما كان يتحدث معها في شؤونه الخاصة. كانت تشعر بأنه في مكان آخر هو رجل مختلف، في الأربعين من عمره، متزوج وأب عائلة وموظف كبير، أو رجل أعمال محترم، وأنها هي تمثل له عالمه الموازي، وحياته الأخرى.

ولم يكن ليضرها، بل صارت سعيدة بخروجها من تلك الورطة سالمة وأنها تحيا من جديد.

سألته مرة عن اسمه فقال لها «كريم» ومرة أخرى«محمود» ومرة «عادل» وفي كل مرة كان يضع لنفسه اسماً جديداً. وكان يحرص عندما يأتي إلى تلك الشقة السرية أن يلبس لباساً محترماً، بدلة فاخرة جداً، حتى أنه كان يحمل معه سيجارا هافانيا، ويدخنه ببطء مميز. تلك طقوسه التي تعودت عليها، وأحبتها في البداية، طريقته في الكلام، أفكاره التي كانت تشعر أنها كبيرة عليها، كبيرة ولا يمكنها أن تفك ألغازها إن لم يشرحها هو بنفسه.

كان يقول لها حينما يحدث له أن يتكلم:

- في هذا العالم الحقير الذي نعيش فيه كل شيء يعتمد على المظاهر.

ويضيف وقد احمرت عيناه قليلاً من الشرب:

- لأن المظاهر هي حقيقة الإنسان اليوم، الإنسان بلا جوهر وعديم الروح.

لم تكن لتفهم كلماته تلك، أو خيبته، أو نقمته من الحياة والعالم، وكثيراً ما تساءلت من يكون هذا الرجل؟ ماذا يعمل حقاً؟ ولكن خوفها من أن تجرها تلك الأسئلة إلى مالا يحمد عقباه سرعان ما تدفعها للصمت، وتُؤخِر انشغالاتها تلك، وهي تشعر أنها مخاوف لا أقل ولا أكثر.

- الإنسان يخاف هذه طبيعته ومعدنه.

- الإنسان الذي لا يشعر بالخوف ليس إنساناً بالمرة.

هكذا كان يقول هو أيضاً، وقد استراح بعد جماع لم يدم سوى لحظات معدودة.

ثم شرعت حياتها الروتينية تزعجها، وإحساسها بالحجز، وقد قفل عليها في بيت من غرفتين ومطبخ تثير فيها الضيق والاختناق.

كانت مهدمة/مهددة، تريد أن تستغيث ولكن بمن؟

عائلتها لم تسألها عنها قط. كانت حريصة على قراءة صفحة الخدمات في الجرائد كل يوم علّها تقرأ رسالة من عائلتها تطلب منها العودة، أو حتى خبرا من طرف الشرطة عن اختفاءها من البيت، ولكن لا شيء من هذا حدث.

بدت كما لو أنها لم توجد قط. نسيها الجميع ونسيت هي بدورها طفولتها وأحلامها البعيدة. يوماً بعد يوم كانت تشعر بأنها لم تعد تصلح إلا أن تكون دمية رغبات لرجل لا تعرف عنه أي شيء.

ولقد أساءها ذلك بعنف، وأصبحت متوترة، وصار قلبها يختنق كلما رأت الرجل يأتي دائما في المساء على الرابعة تقريباً، ويغادرها على السابعة تقريباً. كان يحضر معه الأكل والشرب، ويفعل ما يفعله، وعندما يكون رائق البال يتحدث عن أفكاره تلك ورؤاه.

لم تكن تكرهه، لكنها لم تكن تحبه أيضاً.

كانت تجذبها إليه قواه الشريرة، غموضه المربك، وقدرته على أن يمغنطها كلما تحدث معها. كانت تستلم لأفكاره وكلماته حتى لو تكن تفهم منها الشيء الكثير.

طلبت منه مرة أن يساعدها على تعلم القراءة حينما رأت كل تلك الكتب التي تملأ رفوف مكتبته في الصالون، فقال لها كلاماً غريباً:

- لا أريدك أن تستيقظي أرجوك.

وغضبت، فصارحها بكل صدق:

- أنتِ هكذا أفضل. التعلم يجعل حياة الإنسان قلقة.

لكنها أصرت فساعدها على فك الحروف فقط، وصارت لُولَا تحاول القراءة، وتقرأ عناوين الكتب لكنها لم تذهب بعيداً في الأمر.

شعرت أنه بعد سنتين من معاشرة هذا الرجل لم تعد إلا دمية مضبوطة على إيقاعاته ونزواته وشيطاناته.

شعرت بأنها تذوب فيه. وها هي تصبح عبدة صغيرة له، مجرد عبدة، وكل حياتها مرتبطة به. هو ولا أحد غيره.

لُولَا لم تستفق إلا عندما تغير هو، و بدأ يدعو أصدقاءه للبيت. كانوا اثنين في البداية. صاروا يأتون ويشربون معه، يسهرون حتى وقت متأخر ثم يغادرون البيت. لم تكن تكلمهم قط، كانت تنتظر في غرفة النوم حتى يطل عليها رجلها بعد أن تعتعه الشرب، ويجامعها من دون وعي تقريبا ثم ينصرف وينصرفون معه. ثم بدأ يتركهم يتسللون لمخدعها ويمارسون معها ما يمارسه هو، لم تحتج، وخضعت مستسلمة دون أن تقوى حتى على سؤاله «ماذا يحدث له، ولها، ولهذا العالم؟»

بدأت تشعر بإهانة مبهمة تخترق أعماقها الصاخبة. بجرح غامض هو الآخر بحيث أنها لم تكن قادرة على تفسيره بأي شكل، فقط لأنها لاشيء، ملك يدي ذلك الرجل لا غير، ويا للغرابة! بدأت تشعر أنها تحبه، تحبه بجنون وهوس...

أول مرة أحبت لُولَا كان ذلك في طفولتها البعيدة. أحبت شاباً يافعاً كان يسكن بالقرب من بيتهم. كانت تبصره فيرتعش قلبها، وتطير بأجنحة خيالاتها لسماوات بعيدة. كان حبها الأول، حب

الأحلام الذهبية والخيالات الجانحة. ربما لم يكن حباً حقيقياً، لكنه بداخلها كان أكثر من ذلك.

بعد سنوات طويلة تعرفت على ذلك الجندي في الخدمة العسكرية. كان قادماً من أقصى الشرق الجزائري، من مدينة عنابة. رآها مرة في السوق تتسوق فتبعها، وأصر على التحدث معها، وهي ترفض مرة وتجاريه مرة أخرى.

كانت لا تعلم إن كان ما جمعها به لشهور هو حب أم لا، لكن الشاب كان يؤثر كلمة حب، ويمنيها بالزواج، وهي كانت ترغب في الزواج منذ أن أخرجها والدها من المدرسة وأغلق عليها أبواب التعلم، قائلا بأن بقاءها في البيت أحسن لسمعتها.

ربما لهذا لم تفكر كثيراً، وهي تقبل اقتحام ذلك الجندي الشاب لجسدها. شعرت به يدخلها بخوف وارتباك، كان خائفا، لكن مصمما بخبث، وقد صارحها من بعد بأنها أول مرة يفعل ذلك.

لقد فعلتها معه وهي تنتقم من شيء اسمه سمعتها، من شيء ماكر فيها، من حياة خطط لها أن تفقد أي وجه من البداية، بالرغم من حدسها أن الجندي هذا لن يفي بوعوده. وهذا ما كان.

- شؤون الحياة معقدة، ولا داعي لأن نفسرها دائماً.

رجلها يقول لها هذا الكلام ليبرر نقائصه، وسوء تعامله معها. لقد صار مختلفاً بعد عامين، ربما لم تعد تستهويه، وربما أصبحت عبئاً على حياته، ربما يريد أن يغيرها بأخرى. ما المانع؟ عندما يمتلك شخص المال والقدرة يفعل بالآخرين ما يشاء.

كانت لُولَا تعرف ذلك، ولهذا بدأت خشيتها تزداد، وقلقها يكبر، وحياتها تضيق عليها كلباس قديم لم يعد مقاسه يصلح

لنلبسه مرة أخرى.

وجاء يوم الطرد. جاء بقسوة وعنف توقعتهما منه منذ البداية.

وقال الرجل لها:

- أرغب في أن تخرجي من البيت.

فسألته «ولكن إلى أين؟» هنا كان وقحا للغاية «صديقي سيتكفل بأمرك» وقدم لها صديقه، كان رجلا في الخامسة والأربعين، قصير القامة، ونحيف الجسم، أسمر البشرة، وله عينان شبه مظلمتين.

- سآخذك إلى مكان آخر.

حاولت لُولَا أن تصرخ، لكنه أمسكها من شعرها ودفعها على الحائط فسال خيط من دمها على الأرض. تلك القسوة والظلم أشعراها بالخزي من نفسها، ودفعاها لتخرج من بيت ذلك الشخص دون أن تودع الأيام والليالي التي قضتها في ذلك المكان.

خرجت باكية، واستقرت مع الرجل الثاني القصير القامة، والذي شرح لها الأمر بيسر:

- أنت لي.. أتفهمين؟

فقالت منهارة، طائعة:

- نعم أنا أفهم.

سنتان أخريان مرتا على لولا بهذا الشكل أيضاً، ثم جاء موعد خروجها من جديد فقال لها الرجل القصير:

- أنت حرة الآن. لا أريد مشاكل مع الشرطة. ماذا تريدين أن تفعلي؟ عندي صديق يمكنه أن يقبلك في حانته ما رأيك؟

وهكذا دخلت لولا حانة الثعابين ثم حانة الأجراس ثم حانة

الشاطئ ثم حانة الشمس ورأيتها هناك أول مرة: طيبة ومنفتحة، وعندما حكت لي هذه القصة انفرطت دموعي فقالت لي:

- لا تقلقي بشأني فأنا سعيدة.

تساءلت فجأة: لماذا تذكرت حكاية لُولا الآن؟ لماذا تدفقت بداخلي كما لو أنها حكايتي نفسها؟ ولماذا حياة بعض الناس سيئة لهذا الحد؟

تساءلت: أين تكون الآن؟ هل أخذتها عاصفة الحرب إلى المقابر الجماعية التي لا تحمل أسماء؟ أم لا تزال في مكان ما تغمض عينيها على الماضي، وتردد أنها بخير، و«لا داعي لأن يقلق الناس عليَّ».

* * *

لازلت أتذكر، وفي رأسي محطات كثيرة قفزت عليها، لكن رغبتي أصبحت ماسة في أن أعود إليها. أتردد في الإقدام، وأشعر بأن كل شيء فيّ يؤلمني، والأرض مفتوحة على الدم والحرب والخيانات والانتظار المؤلم لفرجٍ يطل من السماء.

لا هو أطل ولا حبيب منيرة الغالي عزيز السبع أطل هو الآخر، ولم أجرؤ على مهاتفته. كنت أتجول في شوارع الجزائر العاصمة هاربة من نفسي، ومن غليان قلبي وتطاحنه بالمشاعر المختلفة متسائلة: من نحب في النهاية؟ الأشخاص الذين يمتلكوننا، أم أولئك الذين نرغب أن نتشارك معهم في كل شيء؟

لو سمعني عزيز السبع لقال: الحب تبادل رمزي ومادي، أهم ما فيه، التبادل أما الملكية فهي تحكم مقيتٌ في حرية وإرادة الآخر.

كنت أشعر بأنني مقيدة، ليس بمسعود فقط، ولكن بكل ماضي، بعلاقاتي القديمة، وحتى بحياتي المتحررة، بما تصورته جنوناً وانعتاقاً من شرانيات تتربص بي، والآن يفجعني تذكر كل تلك اللحظات.

حتى أستاذ الفلسفة الذي كنت أحب فيه بعض الأشياء وهو يدرسنا فلسفته الماركسية بعناية وحب، كنت أمقته لأنني كنت أتصوره جباناً يخبئ رأسه في النظريات والأفكار الكبيرة لكي لا يخاطر بنفسه في معمان الواقع الحقيقي.

أذكر كيف اصطدته مرة، وهو خارج من الباب الكبير للجامعة. مثلت عليه دور الطالبة الشغوفة بالمعرفة والمغرمة بأفكاره تلك.

قلت له بابتسامة مغناجة:

- بدأت اقرأ «دفاتر السجن» لغرامشي.

ففرح كثيراً، كان غرامشي نبيه الفكري والروحي الكبير، وطلب مني أن أتمشى معه حتى ساحة الشهداء حيث يسكن. قضينا سويعات في حديث فكري رائع، ثم وصلنا إلى حيث يسكن فاعتذر لي قائلا:

- لا أستطيع دعوتك للبيت لأن العمارة التي أسكن فيها مليئة بالسكان المحافظين.

فقبلت اعتذاره، لكني تساءلت دون أن أفصح له: كم يصبح الإنسان في بلادنا مزدوج الشخصية لمراعاته حمق الآخرين وبلاهة تفكيرهم!

أجبرت نفسي على محادثته ثانية، وقد خاب ظني فيه أيضاً، تحدثت له عن حياتنا المزدوجة وسألته: «ما رأيك في ذلك؟»

ولا بد أنه فهم مرماي، وقال مترددا:

- لست من دعاة المواجهة مع المجتمع لهذا أنا أختلف مع الآخرين، وكما تعرفين لست منتمياً إلا للفكر الذي اعتنقه عقلي بعد تفحص ودراية.

فسخرت منه في سري: «أي فكر يا دكتور عندما يبقى مجرد أفكار محبورة على الأوراق؟» لكنني تجاهلت ذلك وسألته من جديد:

- هل تعتقد أن للفكر قيمة إن لم يدخل في علاقة تصادمية مع السُلَطْ القائمة؟

ضحك حينها، وقال معبراً عن رغبته في الانفلات من قبضة أسئلتي:

- سنك يسمح لك أن تفهمي الأمور من زاوية علاقتها بالواقع، أما تجربتي أنا في الحياة فلقد علمتني أن الأفكار والكلمات هي أهم شيء في الحياة.

وأضاف وهو ينصرف:

- أقصد أننا عندما نتعلم إنتاج الأفكار وندرك قيمتها فإن أشياء كثيرة ستتغير.

بقيت ألوك في ذهني ما قاله لمدة طويلة، إلا أني لم أقتنع، وعندما تقصيت في الأمر عرفت لماذا هو هكذا، فقد قال لي أحد الطلبة:

«أنت لا تعرفين قصته. لقد حدث له نفس الشيء الذي حدث لريجيس دوبري، ذهب حتى لأمريكا اللاتينية كي يحارب من أجل عقيدته الماركسية، ولكنه عاد خائب الأمل».

قلت له معترضة كما لو أن شخصاً آخر سواي يتكلم:

- لماذا نسخف أمر الثورة بهذا الشكل؟

- ليس هناك أي تسخيف. ولكن هذا ما حدث له، وهو من يومها منشغل بقضايا أخرى. منشغل بالفكر كما يقول هو.

وتركته يشرح لي بعض الأفكار التي كان يشتغل عليها: لماذا تتعارض بنيتنا الاجتماعية والسياسية مع الديمقراطية؟ هل يجب أن نطور فكرة الحزب أم فكرة الجماعة؟ ولا أدري لماذا سخرت منها، وقلت له متسائلة عن شيء آخر: «هل هو متزوج؟» فضحك صديقي الطالب وقال:

- نعم، امرأة من الشيلي، ولكن توفيت منذ سنة. سافرت لزيارة أهلها وهناك وقعت في مصيدة لقطاع الطرق.

أخذت الخبر بجدية، كان الأستاذ الوسيم قد أثارني بشكل خاص، وقررت مرة أخرى أن أطارده، وأبادر من جهتي فقط، فنجحت المكيدة، واستطاع أن يقبل دخولي بيته.

أدرك الآن أنني كنت أرغب منه في شيء آخر، ربما لم يكن يعرفه هو، ولا أنا كنت متيقنة منه. كنت مدفوعة بجنون لتعويض نقص مخيف بداخلي، شعرت لأسباب أجهلها أنه يشبه والدي، في ملامحه وطريقة كلامه وفيض الحنان الذي يصدر منه كلما تحركت يداه نحوي، سألني عن حياتي فلم أخبره إلا بالنزر اليسير، وأفصح عن مواقفه من كل شيء، من السياسة، والحكم البوليسي، وتدهور المعيشة، قال أشياء خطيرة بالفعل، دون أن يشعر بالخوف من أن أكون جاسوسة عليه، قلت له ذلك فابتسم، وعبر لي عن شفقته على أولئك الذين يكسرون البلد بالتجسس على أناس من نوعه. فسألته:

- هل تشعر أنك تنتمي لنوع خاص؟

- لا أبداً. أقصد أمثالي ممن لن يضروا البلد ولو بخدش صغير.

تقدمت منه أكثر، وشعرت بأنه ارتبك بعض الشيء فقام من فوق أريكته، وأحضر إطاراً يضم صورة لزوجته، وقال: «اسمها ماتيلدا غونزالس، كانت رائعة حقاً»، وأكدت له أنها جميلة، وتركته يسرح بذاكرته، وحكى بصوت مرتعش أيام عشقه لها، وقال بأن هناك نساء يملأن الرجل بالغبطة والحياة الحقيقية، وأنه بعد رحيلهن يفقد هذا الرجل أي رغبة للاقتراب من أخريات.

فهمت ما أراد أن يبلغني إياه، لكني كنت وقحة، اقتربت منه أكثر حتى لامست جسده بالفعل، فشعرت بأنه توقف عن المقاومة، وحينما وضعت يدي فوق أصابع يده بدا أن فرائصه ترتعد، وهجم عليَّ. كانت لحظة مصفاة بعناية، ولا أدري كيف فعلنا الحب لحظتها. فعلناه بصمت كبير حتى أنني لا أذكر من تلك اللحظات إلا أن عينيه دمعتا في الأخير فانقبضت، وحزنت لشأنه.

تركته وانصرفت. انتظرت مدة طويلة أن يكلمني، أو يسأل عني، لكنه لم يفعل. فتركته لحياته. ولم أفهم حتى الساعة سره الذي يخفيه. كنت أظن أن الرجال سواسية في أمور كهذه، غير أن ذلك الرجل برهن على أمر مختلف، وإن فاجئني بعض الشيء فلقد أثار بداخلي مشاعر الإعجاب نحوه، ولهذا تركته أو توقفت عن مطاردته واكتفيت بأن قلت فقط إنه ليس من عالمي. إلا أنني لم أكن آنئذ قد حددت ما هو عالمي بالضبط؟

* * *

سبحت في الحياة كامرأة مجنونة. طائشة وقلقة. كامرأة غاوية

ومدمرة. كنت أرغب في سحق الرجال قدر ما أستطيع، ولكن في مرات عديدة ظلت قواي تخونني، وحتى شيطنتي تلك خانتني فكنت أترك بعض الجراح مفتوحة، وبعض القصص غير مكتملة. بل كنت أشعر أن نفوري من المغامرة مع بعض الرجال كان مرده أنني كنت أخاف وأشفق عليهم من رغباتي التدميرية، ومن جنوني المتوحش، ومن آفات جسدي المرعبة.

تركت حياتي تنساق وراء أوهام كثيرة، وفكرت أن ذلك كان أحسن لي في بعض الأحيان من الانضباط في منطق عيش جماعي لا يوفر للمرأة أي فرصة كي تبرز بطبيعتها هي، ومنطقها الخاص، وليس بذلك المنطق الذي يحبونه لها أن تكون عليه. كنت من هذا الجانب راضية على مساري المعوج، وخيط حياتي الحلزوني والمتقلب. راضية على أنني لست سجينة أي أحد اللهم إلا ما يشتعل بداخلي من قلق وتمزقات، تلك التي كانت وحدها تؤلمني حقاً، وتدفعني ربما للمزيد من التوحش والانتقام.

(4)

أصابتني فجأة الرغبة في الصمت فصمتّ.

صمتّ وقتاً طويلاً لم أتفوه فيه بأي كلمة، وأنا أشعر أن دنياي التي ألفتها تهتز صورتها في ذهني ووجداني، وأن ما كان بالنسبة لي يشكل حقائق مستقرة قد تشقق بفعل أفكار وخواطر كثيرة غمرتني في تلك الأيام التعيسات.

لم أبرر أي شيء. بقيت ذكرياتي تتدفق وتخرج من أمكنة داخلية بعيدة، وتصنع لنفسها وجوداً مستقلا عني، لا أتحكم في نزولها ذاك بأي شكل. وحدها تغمرني، ووحدها تقدم لي مساري الخاص.. تقدمه عارية، وأنا بداخلها كنقطة صغيرة لا تكاد ترى في فضاء ممتد وشاسع كأنه اللانهاية.

طوقتني في صمتي أحاسيس مختلفة ومتناقضة. تصورت نفسي قوية بحيث أستطيع تجاوزها على نحو ما، وكان يكفي أن أضغط على شيء في صدري مثلما كنت أفعل باستمرار. أضغط وأستمر، أقتل كل ما يحاول لجمي، وأواصل طريقي بلا مبالاة. ولكنني لم أضغط، ولم أجد القوة الكافية لأفعل ذلك، ولا الشجاعة التي كنت أبصرها دائماً فيّ، وهي التي مكنتني من تجاوز عقبات كثيرة في حياتي.

عرفت بشكل خفي، أو في باطني العميق، أن الأمر مرتبط بشيء خطير سيحدث لي. شعرت بدنو النهاية، باقتراب الساعة، بذلك الأمر المرعب الذي كنت غير مبالية حتى به هو.

فكرت في الموت لأول مرة بطريقة طبيعية. أي بخوف، بقلق وبجدية مرعبة.

الموت. هذه الكلمة الصغيرة التي كانت تعني لي فيما سبق الرغبة في الانعتاق من كل هذا الجري العبثي، والضوضاء. القفز إلى عالم أكثر حقيقية من هذا العالم الذي سطرت قوانينه على الغش والكذب، ويتركنا نعيش فيه بأقنعة نلبسها كل يوم كي يعتقد الجميع أننا متكيفون معه.

كنت أكره هذه الكلمة «التكيف». التكيف مع المجتمع، مع البيئة، مع المحيط، مع الناس، مع القوانين. وكنت أقول بأنني أقبل التكيف فقط عندما أرسم قوانيني لنفسي، مع من؟ وضد من؟ أما عندما تأتي القوانين من فوق، فتصبح بالنسبة لي سجناً مخيفاً، وقدراً يجب مقاومته ورفضه.

والآن صار عليَّ التكيف مع قانون آخر اسمه الموت.

«سأموت» نطقت العبارة بشفتين مصلوبتين، وروح منهارة، وجسد راح يشعر بتفككه النهائي والأخير.

لم أفكر لماذا يجيء هذا الحدس الآن؟ وكيف نبت بغتة بداخلي المسمم؟

فكرت فقط أن نهاية روايته جاءت بصورة شاعرية ومثيرة:

«ودخلت «لام» الغرفة التي قررت أن تضع فيها حداً لحياتها. وجلست بهدوء فوق السرير، تمددت كجثة آن وقت توديعها لهذا العالم، وانتظرت بصبر وصمت ساعة ما يملأ الغاز الفضاء ويخنقها نهائياً. لم تتردد للحظة واحدة في تقبل موتها بذلك الشكل. لقد كانت راضية بأن تختار هي طريقة رحيلها عن هذه الحياة، وفي قلبها شيء من الأسف، مع كثير من السعادات..»

لم أحتج على مصير «لام» في روايته. وجدته في النهاية منطقياً وجوهرياً. وجدته يعبر عن ذروة شيء تراجيدي يجب أن يصل إليه في النهاية، إلى فصل تسحق فيه الحياة نهائياً.

ذلك الفصل هو موتها/موتي.

كان الموت يدور في رأسي ويدور كما لو أن كل شيء أصبح مرتبطاً بلحظة الختام تلك، بزمن الرحيل غير المؤجل، بدقائق السفر الأخيرة، فشعرت بأن ذلك هو مطلبي في النهاية. كنت قد ضيعت فرصاً كثيرة من قبل لأسلك طرقاً أخرى، ولكن شاءت لي الصدف، أو عبثية حياتي أن أنقاد في سيري لعالم مشوش بكل شيء وأن يختتم ذلك كله بنقطة تنسحق فيها الأحلام كلها دفعة واحدة وإلى الأبد.

غير أن أوهامي في قلب انتظار الموت، كانت تشيع بداخلي جواً من الفرح والأمل الذي لا يظهر جلياً في البداية بقدر ما يتجلى كمشاعر داخلية عميقة تريد أن تصل إلى شاطئ النجاة بسرعة، دون أن تضيع أي ثانية من الوقت.

فكرت في ذلك الأستاذ الوسيم وسألت عنه، وقيل لي إنه يدرس بنفس الجامعة، وسألت إن كان تزوج مرة أخرى أم لا، فلم يجبني أحد. وكان عليَّ الذهاب مجدداً إليه. لقد فاجأته حقاً وهو يفتح لي باب شقته إذ صاح متوتراً «من؟ ليليا؟» وبسرعة توغلت إلى الصالون دون أن أطلب منه أي إذن بالدخول، كان قد تعود ربما على سلوكي الصبياني هذا، ولا أدري لماذا شعرت بأنه فرح برؤيتي، أو شيء من هذا القبيل شعرت به يلتمع في عينيه المنيرتين. جلست فوق الأريكة التي لم تتغير لا في شكلها ولا في المكان الذي كانت عليه منذ أكثر من سنة، وسألني:

- ما الذي جاء بك؟

ضحكت وأنا أرد:

- طبعاً توقعت منك سؤالاً سخيفاً كهذا؟

- لم أقصد (ردّ بحرج كبير).

- أعرف من حقك أن تسألني لماذا عدت لأراك؟

أراد فجأة أن يتهرب من الموقف، وقال بأنه سيحضر لي مشروباً بارداً لكنني رفضت، وطلبت منه أن يجلس بقربي، وشرحت له كيف أنني أرغب في سماع حديثه المخلب من جديد، قائلة:

- لقد جربت أموراً كثيرة في الحياة، لكن كلامك الجميل كان يثيرني دائماً، يجب أن تصدق بأنني عندما أسترجعه أشعر بفرح غامر، وبلذة عجيبة تستقر في داخلي. يجب أن تصدق بأن لك تأثيراً عليَّ.

صمت وهو يتأملني شارداً بعض الشيء، ولعله راح يتذكر هو أيضا كل ما دار بيننا من أحاديث، ولربما توقف عند نقطة الجنس التي أربكته وأحرجته وجعلت دموعه تحتقن في مقلتيه وتنزلق ساخنة على خديه.ثم همس:

- يا مضى وقت طويل على ذلك.

قلت مازحة:

- لا تقل إنك تغيرت منذ ذاك الوقت.

تنهد بعمق وهو يجيب:

- لا أدري، ولكن هل تصدقين ما حدث بيننا جعلني أتغير كثيراً. لقد أحدث هزة إيجابية بداخلي، ربما لم أكن أهمك في تلك اللحظة إلا كمغامرة عابرة، ولكن ما جرفته معها من أشياء

كان مهماً بالنسبة لي. هكذا هي الحياة. أحياناً تخرج من السلب إيجابيات لم نتوقعها قط.

ثرثرنا أكثر من ساعة، وخرجت مقتنعة أن مغامرتي القصيرة معه قد حررته من شبح زوجته ماتيلدا غونزالس، ولعله لَولا تلك المغامرة لكان انتحر، أو فعل شيئاً سيئاً بنفسه. ربما تألم لأنني تركته بعدها، إلا أنه عوفي، وعادت له الرغبة مجدداً في الحياة، وكانت المفاجأة الكبرى التي ختم بها اعترافاته أنه تزوج ثانية من فتاة جميلة عرفت منه أن اسمها «لُولا».

* * *

فرحت في أعماقي أنني أنقذت شخصاً دون أن أتقصد ذلك، ودون أن يكون وراء ما قمت به أي هدف كهذا، في النهاية أنجزت شيئاً صار بوسعي أن أفتخر به أمام نفسي على الأقل، على قلة ما كنت سعيدة به في حياتي.

بقي تفكيري بعدها منحصراً في رواية عزيز السبع، قرأتها وأعدت قراءتها، وشعرت بالحاجة لمكالمته من جديد. مشاعري نحوه كانت في ذروة غرابتها، متناقضة وغير مفهومة، وكنت بحاجة لشرح ما لا يشرح، لفهم ما لا أرغب في فهمه.

سألت عنه في هاتفه فقال إنه غارق في كتابة روايته الجديدة، ولكنه تحت إلحاحي قَبِلَ أن يستقطع من وقته ساعات ليلتقيني. وما إن رأيته حتى سارعت إلى معانقته. استغرب مني هذا السلوك، وعندما رآني أبكي راح يربت على كتفي، وهو يسألني عما يحدث لي، فقلت له:

- أحس بأنني مريضة، متعبة، على وشك الموت.

حاول طمأنتني دون جدوى، كنت في الحقيقة بحاجة لأن أبقى ملتصقة بصدره، شاعرة بنبضات قلبه، متوهجة بروحه التي كانت تصلني خيوطها السرية. وقلت معللة ما يحدث لي:

- زوجي سافر منذ عام تقريباً، ولم يعد. لم يرسل لي ولا برقية يخبرني فيها أين هو أو ماذا يفعل؟

تنهد بأسى وقال متحدثاً بصوت خافت:

- سمعت أنه في إحدى بلدان أمريكا اللاتينية.

تعجبت من إجابته السريعة، ومن معرفته بشيء كنت أحسب أنه سري للغاية وسألته:

- ومن أين لك بهذه الأخبار؟

فرد بصوت مرتفع هذه المرة:

- زوجك رجل معروف.

ولم يكمل، غرق في صمت طويل شاركته إياه بدوري، وأنا أغرق في تساؤلات مدوخة عن مسعود وهروبه المخجل من بلده.

الحرب أوشكت على الانتهاء، والمفاوضات تكاد تنتهي، ولا بد أن يهرب بثروته التي جمعها.. لا بد.. ماذا يفعل في أرض الخراب هذه لو بقي؟

كنت أكلم نفسي عندما باغتني من جديد مفصحاً عن أسراره:

- هل تعلمين بأن منيرة بعثت لي برسالة منذ شهر تقريباً؟

كدت أقول له: ومن أين لي أن أعلم؟ لكنه لم يمهلني الوقت ليسرد عليَّ فجيعته بدوره:

- أخبرتني بأنها تعرفت على شخص رائع في مدريد وأنها تحبه.

كادت دموعه تسقط فجأة، وهي تترقرق من محجريه، ثم

صمت ولم أجد ما أقوله له، غير أنني شعرت بتضامن كبير معه. كلانا في وضع واحد. زوجي هرب مني، وحبيبته تركته. فجأة ارتبطت أقدارنا وتقاطعت في نقطة واحدة. نقطة ساخنة ومتوترة.

وبينما راح يحكي ألمه بشفافية ومن دون تحفظ، كانت روحي تستعيد بهاءها من جديد. كانت تستعيد قوتها الخفية من باطن مهزوم وقلب مفرغ.

وشعرت فجأة أن خلاصي الأخير لن يكون إلا على يد عزيز السبع، حبيب منيرة الغالي.

صوته المكسور كان يتكسر مع كل كلمة ينطق بها:

- لعنتها.. شتمتها، ولكن في النهاية كان كل شيء مرتباً بعناية قدرية ليكون هذا هو الشوط الأخير، شوط علاقتنا تلك. لقد أشعرتني بذنب كبير لأني رفضت الارتباط بها في فترة الحرب. وجعلتني مسؤولاً عن سفرها للخارج. تداخلت الأمور ما يحدث من قبل يؤثر على ما يحدث من بعد.

بقيت من جديد صامتة. في قلبي ترتعش أوراق الحب الناعمة. ترقص تحت وقع أغاني جميلة تأتي من مكان سعيد حتماً.

كنت سعيدة بمصابه، وفرحة بقدره الأسود بينما كان هو غارقاً في لجة ظلامه اللعين. في دمار أحلامه، وسقوط مثال حبه الكبير. بحيث أنه لم يكن ينظر إلي مثلما كنت أفعل، مستغرقة في تفاصيل وجهه، وملامحه الحانية، ومستشعرة قوة غريبة تجذبني نحوه وتأمرني «اقفزي على أرضه آمنة مطمئنة. خذيه بين أحضانك، ولا ترددي في ضمه إليك بقوة. إنه لك الآن بلا أي قيد أو علاقة من شأنها أن تمنعه عنك».

كنت أبصره يتكلم بأسى وأنا مترددة مرتجفة، قلقة وخائفة،

مذعورة ومشوكة، كان قلبي يرتجف من فرح يغمره، وسعادة تنتش بداخله، ومن أمل يطفو على سطح مياهه الغامرة.

كل شيء يعود للوراء، وفي قلب ذلك الوراء تخونني الشجاعة والكلمات التي عبرها يستطيع الإنسان أن يقول من يكون على حقيقته.

لم أجد ما أستند عليه. فكرت في أن علاقتي به من قبل لم تكن أبداً حقيقية. فكرت في أننا تقاطعنا في زمن غريب، لا هو كان يعرف من كان فيه، ولا أنا كنت قد حددت لنفسي هوية أستقر عليها.

هويتي كانت دائماً زئبقية، تجمع بين الحقيقي والخيالي. تماماً مثلما أتصورني الآن أكتب كبطلة في رواية وتطلب من روائيها أن يسمح لها بمساحات أكبر كي تشرح لنفسها من كانت من قبل وإلى أين وصلت اليوم.

كان يمكنني أن أتقمص فجأة دوراً آخر، وأغير ثوبي بسرعة، وألعب عليه، هو الذي كان يبدو لي من دون منيرة كالريشة في مهب الريح. شعرت بدقات قلبه المضطربة تصلني بعمق. احترت في أمري، احترت في أمره، احترت في هذه الحياة نفسها التي تلعب بنا بهذا الشكل العبثي، تقربنا لتفرقنا، وتبعدنا لتوحدنا من جديد.

البعد والاقتراب، الوحدة والتفرد، العمق والسطح، الهاوية والفوق، الليل والنهار، الجنون والعقل... كل شيء ينتسب للثنائية الضدية، باطل وخرافي، لكنني ألحظ أنه في نفس الوقت يصبح حقيقة كاملة عليَّ التعايش معها، وتقبلها بالفعل.

صمت، وتركته يستمر في مونولوغه الداخلي الطويل.

حديث رجل مجروح في كبريائه أكثر من جروح عاشق فقد من يحب.

أهكذا هم الرجال عندما يضعفون؟ يصغرون لدرجة يمكن فجأة دهسهم بالقدم كحشرات صغيرة لا تكاد ترى. حشرات بلا حماية ولا قوة على مواجهة أي خطر.

هو يضعف، وأنا أزداد تناقضاً وحيرة. تتناسل بداخلي الأسئلة الغامضة عما كنت أريده منه، وعما لم أعد أريده منه. وحسمت الموقف فجأة في سري «لا لن أرغب في رجل مثله».

لقد شعرت بأنني طوال حياتي لم ابحث عن الرجل الفاضل والمثالي، عن رجل الخير والشرف والنبل. كانت تلك الكائنات تثير تقززي بضعفها الذي تعطيه معنى إنسانياً. أو تحاول كي تبرره أن تجعل منه عنواناً لإنسانيتها المختفية في الروح العميقة لهذا الإنسان الضعيف الذي ما أن تقرصه الحياة حتى ينتبه لهشاشته وقلة حيلته.

ضعيفاً كان أمامي، وصرت بفعل ذلك قوية فجأة. قوية بحيث أنني قمت من قدامه، وتركته لحالته التي يرثي فيها نفسه، ومع لحظته المحطمة تلك.

سرت طويلا وحدي في شارع الأبيار بلا هدف، وكل شيء غائم في رأسي، لكن أفكاري صارت فجأة واضحة. صرت أعرف فجأة غايتي من الحياة. لست من صنف عزيز السبع على الأقل. لست من هؤلاء الذين يبكون ويسقطون لأن حباً واهماً فقدوه. لست من أي نوع. لست من أي صنف..أنا ليليا عياش فقط. ليليا عياش لا غير.

(5)

رسالة موجهة لعزيز السبع

«عزيزي

لا أدري لماذا أكتب لك هذه الرسالة، وقد تستغرب أنني أكتبها بعد آخر لقاءي بك. تصورت أن كل شيء يمكن أن يذهب في ذلك الاتجاه الذي رغبت فيه مؤخراً. حاولت أن أقنع نفسي أنني يمكن بشكل ما أن أتوب (لا أدري إن كانت «أتوب» هي العبارة المناسبة هنا) لكنني تساءلت بداخلي «عن ماذا يتوب الإنسان عندما يرغب في أن يتوب؟» ورحت كعادتي أفلسف الأمر، أتناقش مع نفسي فيه. هل شعرت بأنه عليَّ أن أحاسب نفسي على أخطائها تلك؟ ومن لا يخطئ في الحياة؟ من؟ تذكرت فيلماً قديماً شاهدته منذ زمن بعيد أُخذ من رواية أو مسرحية لتنيسي وليامز بعنوان «عربة اسمها اللذة». ربما تكون قد شاهدته بدورك، عندما يحاكم أحد أبطال الفيلم تلك المرأة التي قال لها إنه لا يستطيع الزواج منها لأنها امرأة غير مستقيمة. أذكر كيف أجابته بأن هناك طريقاً مستقيماً، شارعاً مستقيماً، خطاً مستقيماً أما الروح فلا أظن أن هذا الوصف صالح لأن تنعت به. أجدني في نفس هذا الموقف، ولكن بحذر أقول هذا الكلام، بخوف كذلك، ربما لأننا نفسر حياتنا دائماً على ضوء هذه الاستقامة. الأمر الذي يجعلني أتساءل من جديد: هل مردها النازع الديني

المترسب فينا؟ الضمير الأخلاقي؟ هل المقياس هو دائماً المشترك بين جميع أفراد البشر؟ أم لكل تجربة فرادتها في النهاية؟ خصوصيتها التي تخرجها من العام إلى الخاص، من الكل إلى الواحد. كل ذات وتجربتها، كل فرد وحياته، كل شخص وما عاشه. غير أنك تعرف أن الأشياء في الحياة هي ليست دائما الوقائع التي نتلمسها بحواسنا الخمس، بل هي الأوهام والأحلام أيضاً. أظن أنني كنت مدفوعة بروح شيطانية تلبستني منذ الصغر، ولهذا غرقت في أوهامي وأحلامي وتركتها تقودني إلى حيث تريدني هي لا إلى حيث ما أرغب أنا. بقيت مستكينة لخيط القدر، وفوضى الصدف، وعبث التاريخ، أو الحياة أو سمها ما شئت من الإرادات الكبرى التي تتحكم في سيرنا هذا بداخل هذه المادة الكبيرة التي تسمى الأرض. نعم تركت أمر نفسي للأهواء والأخطاء. كثيراً ما شعرت بقيمتها في حياتي. ركنت لبعض الحب، وبعض اللحظات الآسرة بالشوق والحنان، والتي فتحت لي عبر مساري هذا طرقاً كثيرة واسعة وممتدة. شعرت بأنني أختزن في روحي تجارب كبيرة، وحيوات عدة، وأنني كنت أقدر لو فقط تلمست طريقي بيدي أن أبلغ ذروة ما عميقة فيّ، لحظة سحرية خاصة بي، غير أن كل شيء كان يقود إلى نقيضه. حركاتي الإيجابية كانت ترتطم بشيء أسود في، وتموت بسرعة، مندغمة في جرح غائر وهاوية عميقة، فتسقط أو أشعر بها أنها تسقط راكضة نحو فناءها التعيس ذاك.

عزيزي

أكتب لك أنتَ، ولا أدري لماذا أنتَ بالذات؟ لماذا ليس لغيرك؟ لماذا لا أكتب لمنيرة مثلا التي عرفتها منذ الطفولة

البعيدة، وتقاسمنا حكايات مشتركة وجميلة، فأشرح لها أسراراً هي بحاجة لها، أو على الأقل - ودون رجاء صَفحها عني - أحكي لها كيف أسأت لها قديماً وحديثاً، وكيف نازعتني نفسي نحو إيذائها أكثر من مرة، وكيف أن ذلك كله لم ينقص من قيمتها في قلبي، ولا من جمال صداقتنا تلك. وكنت ربما لأنني أرفض منطق التبرير هذا لا أفعل، أرفض أن أشعر بأنني كنت قاسية على الآخرين، ومجرمة في حقهم، فذلك أمر يزعجني جداً ويثير فيّ كوامن من الأسى والخوف.

ربما كبرت في السن، وتجربة الحياة تعلمنا دائماً أن نتفقد ماضينا صفحة.. صفحة، علنا نعرف سر كل ما عشناه أو حلمنا بأن نعيشه. بين ما كان، وما لم يكن. نعم السن يلعب دوراً ما في تغير نظرتنا لأنفسنا، ولمن يحيط بنا. تلوينها بأكثر من لون، أو لو قلت الصدق: تدقيق نظرنا بالضبط جعلنا نفهم الحياة على شكل مختلف، وكتجربة مغايرة.

لا لم يخطر ببالي أن أبعث لمنيرة أي رسالة، وإن كنت أرغب في رؤيتها من جديد. قلت لي إنها تعشق شخصاً آخر في إسبانيا، أعترف لك بأنه خبر هزني بعمق. ظننتها دائماً من النوع الذي يعيش قصة حب واحدة في حياته. المرأة التي تصلح لرجل واحد، وكنت أتصوره أنت. لكن يبدو أن حكمي عليها كان خاطئاً تماماً، وهذا ما نعجز عن فهمه بصورة دقيقة في الحياة. مفاجأتها الغريبة التي تنقلنا من قدر واضح إلى قدر جديد لم نكن نتوقعه بالمرة.

أظن أن منيرة بفعلتها تلك، وقد أضناك ذلك، وربما قضى على شيء عميق فيك، قد فهمت جوهر الحياة القائم على

التحول، وعدم البقاء في نقطة واحدة.

ربما فهمت ذلك، أو خضعت لهذا الجوهر دون أن تدريه، غير أنه معي كان الأمر من البداية بهذا الشكل، وبهذه الصورة المتحولة باستمرار، الصورة التي ترفض المكوث في نقطة ثابتة، وأرض جامدة، وحياة واحدة.

أقول لك هذا الكلام يا عزيز السبع لأنك تفهمه جيداً، ولكنك ككل الكُتَابْ تفهمه نظرياً أكثر من أن تستوعبه في الحياة، وتجربتها الزاخرة بأشكال التعدد والتلون والتحولات المثيرة. تفهمه لأنك كتبت روايتك عني، وأبهرتني بكل ما حكيته فيها أو التقطته لي من صور وملاحظات، حتى ظننت أنك الشخص الوحيد الذي يفهمني بالفعل، ويقدر مأساتي على حقيقتها، ويدرك خفاياي التي لم أفصح بها لأي شخص من قبل.

قلت إنك الأقرب، والأكثر دقة في ملاحظاتك، وهذا ما جعلني أشعر نحوك بالكثير من الوّد والحنان، وربما الحب. أتصور أنك لم تلاحظ ذلك في عيني، وأنا أحدثك. وكان مؤسفاً أن لا تراه أنت الذي كان بمقدورك أن تعطيني ثقة جديدة في هذا العالم الموحش، وهذه الحياة اللعينة، ولكن كنت في عالمك النظري، في يوتوبياك الداخلية، مسكن الكُتاب الدائم على ما أظن، بيتهم الخيالي والمصنوع من تمزقات وجودية ونفسية لا تنتهي، لا يدركون منها إلا أنها تحركهم نحو عالمهم الورقي، وحكاياتهم الخيالية، تلك التي تبرع فيها دون شك.

عمن تكتب هذه المرة؟ لا أشك في أنها منيرة هي التي تستحوذ على خيالك وكيانك كُلِهِ. كأن قسوة الفراق هي التي تحرك الخيوط المغيرة فيك، وتدفعها للتمظهر على مساحة أوراقك

البيضاء. كل شيء في الكتابة مرتبط بالدافع الخفي والقاسي والمؤلم الذي يوجهك لشيء كهذا.

منيرة ضاعت منك، وأنا أحسست فجأة بعد آخر لقاء بأنك ضعت مني. لم تكن لي من قبل، ولم أفكر أن تكون لي من بعد. كنت بين عالمي المختلفين أتحرك، أو أَثْبُتْ مقتنعة بمصيري الشخصي والغريب الذي رسمته لي في روايتك الأخيرة.

قَتَلْتَ «لام» في روايتك. وأنا بدوري شعرت بأنه قتل مادي أكثر منه رمزي. كما لو أنك قتلتني في حياتك من قبل. قتلتني وأنت تحولني إلى شيء ورقي، إلى حياة في الخيال. استمتعت بقتلك لي، تصور كما استمتعت بجنون بطلك بحبي عن بُعد.

لماذا ظل يحبني عن بُعد؟

لماذا لم تشرح الأمر بما فيه الكفاية؟ كنت فقط تتحدث عن مشاعره المتضاربة نحوي:

«يهواها عن بعد، يتعلق بها من خلف حُجُبٍ كثيرة. يُريدها لَهُ وحده، ولكنه متأكد من أنها ستكون لآخرين غيره، لم يملك الشجاعة قط ليجدد معها شيئا بدأ وانقطع فجأة. مات في مهده كما يقال. حرص على حبه مكتوما في أعز مكان في قلبه. صغرت الكلمات في حقها، وبقي يردد عشقه السري بخوف مفزع، ولكن كتراتيل ربانية لا يفقه لغتها أحد إلا هو»..

كنت أقرأ هذا المقطع وأعيده مراراً. تلوته بدوري كآيات بَيِّنات من نص مقدس. كنشيد سماوي. حبه للام بأيِ معنى كان؟ وهل هو حب حقيقي أم شيء يرغب فيه القلب لاستحالته، ولأنه لن يكون؟

تصورت الأمر على هذا الشكل بيننا. لقد أحببت صورة ما

عني في زمن ما لم يتيسر لك القبض عليه. في لحظة اندفاعتي المجنونة نحو عنف متوحش ومقدس، لم أكن حتى أنا متيقظة، وواعية به لألاحظ دهشتك أمامه، ضعفك نحوه، رغبتك فيه، وخوفك من الاقتراب منه.

لم ألاحظ يا عزيزي السبع أي شيء، صدقني لو أصررت على هذا الآن في هذه المكاشفة العميقة بيني وبينك، وكأنني أكاشف نفسي، قبل أن أفتح لك أبواباً جديدة تفهم من خلالها ما يحدث في، أو ما حدث في. قلب الإنسان المغلق والمغلف، بطبقات كثيرة يصعب وعيها بصورة دقيقة. بصورة تجعلنا نقدر الأشياء حق قدرها حالما تقع. ليس قبل وليس بعد، ولكن في اللحظة السحرية المناسبة، فقط لا غير.

أنتَ رأيتني بعينيك الغريبتين، وكانت روايتك مُفاجئة لي، ولم أتوقعها قط. ظننت دائماً أنني أنا من سيكتب عن حياتي لا غير، فإذا بك تفاجئني بشيء كهذا. لقد جعلتني أرتبك. هززت مناطق استقرار داخلية ثبّتُ نفسي عليها منذ زواجي بمسعود. زواجي الذي أشعر فجأة أنني أخسره الآن، أو يخسرني هو. يضيع مني كطوق نجاة أخير في ذلك البحر المصطخب بالمسرات والآلام الكثيرة.

عزيزي

أكتب لك كل هذا لأنني اقتنعت بأن شيئاً ما بداخلي قد تحطم نهائياً، وأنني لست نادمة على تحطمه ذاك، ولربما ستفكر في أن روايتك كانت سيئة عني، ولهذا تهربت من تعليل ما يحدث لشخصية «لام» في النهاية، وأنا أسألك غير محتجة «لماذا قتلتها في النهاية؟» لماذا اخترت لها الإعدام؟ اكتفيت حينها بقول أشياء

غير مقنعة لي تماماً: «الحياة هكذا تنتهي بالموت»، وأضفت مبتسماً «تصوري الكثير من القراء احتجوا على موتها في نهاية الرواية، وهم يقولون لي: «امرأة بهذا الزخم لا يجب أن تموت» وأشياء أخرى سمعتها وقرأتها عن الرواية. تأكدي من أنني قتلتها بحزن كبير. وبألم أكبر».

كدت أقول لك: نحن لا نقتل أبداً بحزن عندما نقتل. ولكنني صمتُّ. لم أذهب أبعد مما قلته لي. أعرف أنك فكرت في الأمر على أكثر من وجه. إن حياةً كحياتي لا يمكنها أن تصل إلى شيء آخر تحقق فيه ذروتها البعيدة إلا بالموت.

لقد كنت شُجاعة في روايتك بشكل ما عندما قررت الانتحار، أما في الحياة فأصدقك القول: لست قادرة على ذلك. لست شجاعة لهذا الحد المخيف، ولهذا تراني أنتظر، ولكن ماذا؟..

(6)

لم أبعث لعزيز السبع تلك الرسالة التي وددت بأعماقي لو أرسلتها له، وقرأها. غير أنني تجنبت ذلك لعدة أسباب، منها أنني لم أكن أنتظر بالفعل منه شيئاً محدداً، ولربما كنت أرغب في تعذيبه، وإزعاج روحه التي كانت مشتعلة بألمها من جراء فراق منيرة. لكن حتى هذا لم يعجبني بالمرة ولم يكن ليريحني أيضاً.

تركت الرسالة جانباً، وبقيت منشغلة بالحياة التي راحت بشكل غريب تتدفق في مفاصلي من جديد. الحب كان سلبياً بالنسبة لي، فأن تحب فهذا يعني في النهاية شيئاً واحداً. تمركز كل ما فيك من أعصاب وذهن وهواجس في شخص واحد، وكل ما حواليك يفقد قيمته ومعناه إلا هو، يبقى مسيطراً ومضيئاً.

توهمت لأيام حباً لعزيز السبع ثم بسرعة انقضى أمر ذلك الحب الغريب إلى لا رجعة. أو شعرت أن حدته خفت كثيراً لدرجة التلاشي، وعادت لي بسرعة أشياء من زمن بعيد كرقصات ضوء حالمة تخرج من سجن الواحد الأحد، وتغرد في العالم بأصوات كثيرة.

كما لو أنني تأكدت أن مسعود لن يعود إلي، وأنه عليَّ أن أواجه حياتي كما عشتها من قبل بصخب وفوضى وجنون.

عندما كُنت من قبل مُندفعة بهذا الشكل العبثي، كان لكل شيء يحدث لي صورة مزهرة وبراقة ولمعان خاطف وجميل يملأني برعشات العيش الصافية، وتدفقات الأحلام الخارقة

والجميلة. كنت موصولة بعالم اللانهائي، وبجنون من ينظرون للوجود بأعين سرية خاصة بهم وحدهم فقط. لا يشاركهم أحد هذه الخاصية وتلك المتعة.

توحشت عالمي القديم الذي ظننت أنني طمرته في هاوية سحيقة، وردمته بأطنان من الحجارة الصماء التي لا تزعزعها أي ريح غاشمة.

نظرت لوجهي في المرآة وابتسمت، وقلت أن ظلام العالم لن ينتصر عليَّ، وحياتي ستتجدد مرة أخرى، وما كان من أمرها في فتراتي الأخيرة سيتبعثر مع تلك الرياح المسمومة إلى الأبد. رياح من؟ رياحهم الكثيرة التي كانت تهب عاصفة وتأخذ معها كل شيء.

كنت هكذا مصممة، وأنا ابتسم لوجهي في المرآة.

* * *

اندفعت مرة أخرى إلى حياة الجنون والخطر.

عدت لما كنت عليه، ولما شكّل تجربتي في الحياة: اللهو والعبث، التمرد والتفاعل مع الحياة الهامشية. الصعود والنزول، وكل ما كنت فيه من قبل حرة ومتفتحة ومخترقة. ما يخافه الناس أواجهه وما يقدسونه أحطمه، وما يضعونه من حدود أتجاوزها دون حذر أو خوف.

صرت لا أطيل المكوث في البيت، بالكاد أدخل لأنام، وصرت أعود إليه دائماً في ساعة متأخرة من الليل مترعة من السكر، وشبه منهارة. أنام ما طاب لي النوم، وأستيقظ وأخرج مرة أخرى للحياة.

صارت الجزائر ساكنة لوضعها المستقر. الحرب توقفت لأجل غير مسمى. هناك من نزل من الجبل، وسلم نفسه، وهناك من بقي حريصا على ضمان حقوقه بعد عودته. مظاهرات من ضحايا الإرهاب هنا وهناك، تجمعات صغيرة للأهالي ممن اختطف أبناؤهم في تلك الفترة السوداء، الصحافة اليومية مع، وضد، بعضهم فرحان لأن الرصاص صمت أخيراً، والبعض الآخر متذمر لا يعرف ما سيكتبه غداً بعدما كانت حوادث الحرب تغذي هذه الصحف، وتضاعف من أرصدتها في البنوك.

السلام لاحت بشائره، والناس صامتة غير قادرة على الاستجابة إلا ليومها: كيف يمر وإلى أين يذهب.

لم أكن مهتمة. أخذت الحرب مني ما أخذت، ولم أكن منتبهة لأي شيء يحدث، وحده صديقي الفرنسي الذي كان عندما يحط بالجزائر يسأل عني، فنلتقي ونتحدث حديثاً طويلاً في كل شيء، فأسأله:

- هل هي مهنتك التي تستوجب عليك هذا الاهتمام بمجريات الأمور في بلدي؟

فيرد متردداً بعض الشيء:

- لا أدري ماذا يهمني في بلدكم هذا، ولكن تأكدي أنني مرتبط بمصيره بشكل ما.

لا أسأله عن طبيعة هذا الارتباط، ومن أي نوع هو؟ لا أستفزه كعادته هو في استفزازي فأقول له: هل هو حنين استعماري عميق في نفوس الفرنسيين، حلم ضاع منهم وما زال يشدهم خيط قوي إليه، أم إعجاب ببلد يتعثر وينهض ويخرج من تجاربه كل مرة حريصاً على الحياة معتزاً بنفسه كما لو أن شيئاً لم يحدث. لم

أتحدث معه بهذه اللغة المتفائلة التي لم أكن أنا نفسي مقتنعة بها..

كنت معه على الأقل أشعر بأن جو النقاش اليومي يتغير. فأسئلته السياسية كانت تجعلني أفكر في الأشياء التي يحسب لها حسابات حقيقية، وتلك التي لاتهمه. كان يعجبني مارسيل في هذه النقطة بالذات، تلك القدرة على فهم ما يحتاج مني لتجربة طويلة كي أصل إليه، مرة قال لي «شفافيتكم صعبة وجارحة، أشعر أنكم ثائرون على أنفسكم أكثر من اللازم» وأدهشني مرة وهو يشرح لي بهدوء «الحزن في عيونكم مخيف، مروع ومدهش».

كنت أقول له متداعية مع روحي الغرقانة في بحر التجارب السيئة، والحياة الهامشية:

- أظن أن كل ما نحلم به الآن هو أن ننام من دون خوف.

وكان لا يهتم بما أقوله، يعرف أنني تائهة حتماً، وهنا يتداعى مع أفكاره الخاصة حول البلد فيقول إننا نضيع فرصاً كبيرة للخروج من هذا التخلف والاقتتال الكبير.

عندما يضع سكينه على الجرح يؤلمني في قلبي، لا أرغب في أن يفهمني أكثر مما أفهم نفسي، منذ سنوات كففت على الانشغال بقضايا مستعصية لا أستطيع أن أغير فيها قيد أنملة.

الحياة واسعة وكبيرة، يمكن الذهاب لأبعد نقطة في الأرض، والعيش بسلام. يمكن فعل ذلك من دون طرح أي سؤال، ولا مناقشة أي مبرر للبقاء في مكان واحد، وأرض محددة.

فكرت في هذا بدوري، وقلت: لِمَ لا أرحل عن هنا؟ لم لا أفعل مثلما فعل مسعود أو غيره من الذين قرروا الابتعاد عن هذه الأرض الخراب التي لن تنجو من لعنتها أية روح سليمة. لماذا أبقى أنتظر؟ لماذا أهزم نفسي بالهامش المريع الذي أرتضيه لنفسي

كحل يُخرس كل تناقضات روحي ويقلص من حدود التفكير في أبعد من هذا الأفق/السجن.

كان مارسيل ينظر إلي بعينين مستغرقتين ويسألني:

- وأنت: ألا يهمك مصير بلدك؟

فأقول له بعينين قاسيتين:

- كلهم ماتوا أو قتلوا أو انتحروا أو فشلوا..

- من تقصدين؟

- الذين يهمهم مصير بلدهم.

كان يشعر بشيء غامض في وجهي يظهر، ويُسيطر على كافة ملامحي، ويقول:

- كما لو أن الأمر سيئ لهذا الحد؟

- نعم يا مارسيل هناك فظاعة في أن تجد نفسك بين مخالب هذا البلد، فتشعر بأن جاذبية السلب تأخذك إلى حيث تريد هي.

- إلى أين؟

- إليها هي. أرض النور والظلام هذه.

- ألا تعجبك حقاً؟

- بالعكس هي تعجبني لدرجة أنني لم أعد أحبها. ولم يعد يشغلني مصيرها.

- لم يعد يشغلك مصيرها؟

- يشغلني الآن مصيري الفردي.

- كل شيء مترابط في النهاية.

- لا أدري إن كان مترابطاً أم لا، ولكن هذا ما يحدث معي الآن.

أتركه وأمضي، لا أعرف إلى أين، ولكن كلمات مارسيل

تصاحبني طويلا في سفري الداخلي، وتجوالي العبثي، أسير في مدينة الجزائر العاصمة أذرع شوارعها الجميلة والبائسة، أحس بنبض قلبي يحترق من الدق بعنف وشراسة، يهرول هو الآخر، يركض، يعذبني وهو يبحث عن حقيقته، أين هي يا ترى؟ وهل للقلب حقيقية يمكن الوصول إليها أو كشفها وإدراك معناها؟ وحتى لو كان ذلك حقاً، فما الذي ينفع في تلك اللحظات التي تسقط فيها الروح بين براثن اليأس، وخيبات الوجود، وتحطمات الجسد، وهذا الفتات المتبقي من الذاكرة؟

كان يصرخ محتجا على عدمية حياة ذهبت في القتل والموت والغياب الشاق عن العالم.

أعود من جديد لمارسيل، أجده مرة أخرى يكتب عن الجزائر مقالات كثيرة، ويقول لي:

- هي فرصة حقيقية أن أعمل ببلدكم. كل المواضيع مهمة وجديدة على القارئ الفرنسي. إنهم يطلبون المزيد.

ويتشعب بنا الحديث دائماً فنطرق عشرات الأبواب، كنت أدرك أنه مطلع على أسرار وقضايا كثيرة، كان يحشر أنفه في كل الملفات، الكبيرة منها والصغيرة، كانت بطاقة الصحفي الأجنبي تسمح له بذلك، وبعلاقات مع رجال أقوياء ومن كل الأصناف والطبقات. كانوا يثقون في صُحف الأجانب أكثر من ثقتهم في صحفهم التي دللوها وقت الحرب، وأغرقوها بالمال والإشهار كي تكون لسانهم في تلك الظلمات اللعينة، ولهذا لا يشعرون نحوها بأي وفاء. هو كان يعرف ذلك، ويتحدث من حين لآخر عن بلد أعماه قصر النظر عن تجاوز مآزقه المفبركة، وحروبه المتطاحنة، فيقول:

- يلومون الغرب في كل شيء، حتى في معاركهم الداخلية التي يصنعونها لأنفسهم، ويغرقون في مآسيها.

إنه استفزازه من جديد، لذلك أرد عليه بقوة:

- هل تعتقد بأن الغرب بريء من كل ما يحدث لنا؟

- ولكن لا أحد يستطيع أن يحرض أخاً على قتل أخيه.

إنه يفحمني حقاً. أصمت وأفكر، تنتابني رجفة، شعور قوي بالسلبية، الغرب ونحن، تفكيرنا وتفكيرهم، مصالحهم ومصالحنا، تداخل العالم في بعضه، لم يعد هناك حدود وطنية، سيادات وطنية، جغرافيات وطنية. أصبح العالم واحداً حتى لو أنه مازال محرماً علينا الهجرة إليهم، لكن هم يعرفون أن ما قد يحدث هنا يؤثر فيهم، وما يحدث عندهم يؤثر فينا. يعرفون ونحن لا نعرف، أو إن من يعرف لا يهمه إلا أن ينقذ نفسه.

شرحت له موقفي بأنني أقبل منطق النقد الذاتي، ولكن، من الخارج لا أرغب في أي درس. بدأ يضحك، ضحك علي، وقال:

- بعد كل هذه المحادثات بيننا لا تزالين تشعرين بأنني عدو.

- لم أقصد هذا.

- لا يهم، ولكن تفكيركم عاطفي دائماً، مشاعركم تسبق أفكاركم.

كدت أقول له تهمتك جاهزة، لكني في نفسي صدقت فكرته. نحن بالعاطفة فقط نعيش، نتألم، بل ونأكل بعضنا بعضاً، مع العدو الخارجي كنا نبحث عن فرص لنسامحه، ونغفر له، ومع أنفسنا لا أحد يسامح أحداً، نحارب بعضنا حد الموت، حتى لو كانت النتيجة فناء الجميع.

أفحمني كلامه، كان مارسيل يتأملني وأنا غارقة في عزلتي الداخلية تلك، حاول أن يرفع من معنوياتي قليلاً، قال كلاماً جميلا عني، وعن الآخرين:

- نحن فقدنا هذه العاطفة، ولكن أحياناً أتساءل: هل يمكننا أن نستمر في حساباتنا بهذا الشكل المختل. العقل سيد في كل شيء.

لا أدري لماذا تذكرت زوجته فجأة، لقد رأيتها مرتين، جاءت معه لتجرب العيش في بلد غير آمن، وقد قالت لي:

- الآن لا أستطيع مغادرة بلدكم!

وعندما سألتها عن السبب:

- ليس بسبب الشمس ولا البحر، بل لأنني شعرت بالحياة هنا، شعرت بأن هناك جمالاً في التدخين والشرب سراً. في باريس لا أحد ينظر لك وأنتِ تدخنين أو تشربين. هنا كلهم ضدك، وهذا ما يعطي لأي فعل قيمة في حد ذاته.

سكت مارسيل وهو يشعر بأنني أغوص في داخلي التائه. بقينا نشرب قهوتنا في صمت، وحين نهضت لأغادره همس باهتمام:

- زوجك سيعود هذه الأيام..

قالها مسرعاً كما لو كان يخبرني بسر لم يكن يرغب في قوله.

- من أخبرك بذلك؟

- لا يهم. كان في الشيلي

- ماذا كان يفعل هناك؟

- أنت تعرفين زوجك أفضل مني؟

تساءلت بيني وبين نفسي إن كذلك حقاً، وأنا لم أكن أعلم في أي بلد هو، ولا موعد عودته. وقال مارسيل مكملا:

- هناك من يرغب في محاكمة بينوشي.

لم أربط بين الحدثين بسرعة، وغادرني مارسيل، تركني على وقع المفاجأة. صديقي الفرنسي يعرف ما لا أعرف. كنت بصورة ما قد تأقلمت مع غياب مسعود الطويل الذي دام سنتين. لقد نسيني ونسيته، والآن بماذا سأواجهه؟ بأي شيء؟ ماذا سيقول لي؟ وبماذا سأخبره؟ هل أقول له أنني انتظرته أكثر من سنة، ثم عدت لحياتي السابقة، وإنه لم يعد ينفعني الآن؟

سنتان مرتا من حياتي من دونه، ولا أجد الكلمات الآن لوصف درجة حقدي عليه وكراهيتي له، درجة اشمئزازي منه، وكان أول شيء قمت به بعد سماعي الخبر هو إسراعي في بيع الفيلا التي تركني فيها وهرب. بعتها واشتريت شقة صغيرة في حي السعادة. أغلقت عليَّ فيها الباب، ورحت أنتظره.

* * *

طرق بابي عزيز السبع مرتين خلال ذلك الشهر الذي اعتكفت فيه وحيدة في البيت. لم أعرف كيف حصل على عنواني، ولكن سمحت له بالدخول، ودردشت معه قليلاً في شؤون حياته الخاصة، حيث أخبرني بأنه عازم على الهجرة إلى كندا. فاستغربت لأمره، وقلت:

- كندا مرة واحدة!

لم يضحك وهو يجيبني:

- نعم كندا البعيدة جداً. لقد أصبحت ملجأ للجزائريين.

- بفرق واحد، هو أنهم هاجروا لها مضطرين، أما أنت فبعدما توقفت الحرب تقريباً تريد الذهاب.

- لقد تراسلت عبر الإنترنت مع شاعر كندي يكتب بالفرنسية، أخبرني بأنه مستعد لاستضافتي في مرحلة أولى، ثم يمكنني أن أتدبر حالي.

سألته عن روايته الجديدة، فقال أنه أنهاها منذ مدة، ثم قام بتمزيقها، فسألته:

- لماذا قمت بشيء مجنون كهذا؟

- أصدقك القول: الجنون هو أن تكتب في هذه البلاد. ثم أريد أن أعيش، زهرة عمري ضاعت في الحرب والخوف والعزلة، أرغب في الحياة الآن. الحياة بأي ثمن.

- ولماذا تخلق تعارضاً بينهما؟

- هكذا فكرت في البداية: أن لا تعارض بينهما، لكن منيرة غادرتني، وهي التي كانت تعني لي بشكل خاص هذه الحياة، ولهذا لا أستطيع العيش بالكتابة فقط.

كان يتكلم بحرقة وألم، بشيء يذهل له المرء ولا يصدقه عندما يكون على معرفة سابقة بعزيز السبع.

بقيت جملته تتردد في ذهني طويلا «الحياة بأي ثمن».

كنت سأقول من قبل بسخرية إنها فلسفة العاجزين في الكتابة، ولكن مع عزيز السبع تبين لي أن الأمر أخذ منه وقتاً طويلا في التفكير. ربما سيتوقف، سيستريح، لكن هذا الرجل كان منذوراً لأن يبقى في وحدته، يكتب لا غير. كان مهدماً بشكل تراجيدي من الداخل. لقد حطمته منيرة. إن بقاياه التي يتكلم منها صارت هشة وضعيفة. ولم تعد قادرة على فتح أي شاشة نظر بعيدة المدى ترمم حصونه القديمة، أو تعيد الاعتبار لهذا الذي تكّسر جذرياً، وصار أطلال حطام خربة.

الحياة وما تفعله بنا، الحياة وما تثيره بداخلنا، بمآسيها وزلازلها، بأفراحها وخيباتها، بنكساتنا وانتصاراتها..الحياة هذا السلطان الغاوي والقاسي والشرير!

في المرة الثانية كان عزيز السبع يحمل معه جواز السفر، وجاء فقط ليودعني. سألته إن كان يعتقد أن ما ينتظره هناك أفضل بالفعل من هنا، فلم يرد. بقي صامتاً، ثم شرب معي الشاي الصيني الذي يحبه كثيراً. بقي صامتاً لوقت طويل، ولاحظ أنني كتبت بعض الأوراق التي كانت مرمية فوق أحد المكاتب بفوضى، ومن غير ترتيب فقال مبتسماً:

- لن أتفاجأ لو أخبرتني بأنك تكتبين.

فلم أجد ما أقوله. كنت أكتب لنفسي لا غير، وأكدت له بأنها عادة سيئة، وأنا لا أزعم بأنني كاتبة، أو أي شيء من هذا القبيل.

لم يعلق بدوره. قام من على مقعده وتقدم مني، وهمس بصوت منخفض واثق:

- ليليا أرغب في أن أطلب منك شيئاً.

استغربت، وفكرت فيما سيطلبه مني، غير أنه وضع يديه على كتفي، وضمني بحنان وقوة إلى صدره، ثم أجهشت عيناه بالدموع، فارتبكت قبل أن يسرع ناحية الباب، ويخرج شبه مهرول.

تركت هذه الحادثة في نفسي شجوناً، وأحاسيس غامضة، وبقيت أتذكر صورته وهو يبكي أمامي. قلبه الرقيق تفجر بشيء لم يتحدث عنه قط. بحب صامت ولعين. بقدر غريب هو الآخر. كان يشعر حتماً بأن الغربة ستأخذ منه حياته القديمة، وأنه سيبدأ من جديد.

* * *

مضى شهران تقريباً، وأنا أنتظر عودة مسعود.

لم يكن قلبي يرتجف وأنا أنتظره، ولا حياتي تتقلب. كنت في حالة جمود وحياد تام. مشاعري استقرت على لاشيء. نوع من الصمت البارد الذي يأكل بحياد الروح المتوثبة في العمق لفعل أمر يثير التفكير فيه كل مخاوفي المضمرة والظاهرة.

لا، لم أكن قد جهزت نفسي لمواجهته. كان صمتي علامة على رفض، ولعلي لم أكن مدركة لحجم ألمي في تلك اللحظات، وأنا أنتظر كل يوم.

بدأت أكتب حياتي من أولها حتى هذه اللحظة، شاعرة أن شيئا أسود سيحدث في المستقبل القريب، وأنه عليَّ كي لا أموت موتة حقيرة أن أدون كل شيء: سقطاتي وتعثراتي ونزواتي وجروحي ولحظات أفراحي وانتصاراتي القليلة.

كانت الكتابة تشكل لي صمام أمان. هدية من السماء كي يتفتح لي قلبي على مجاهيله الغامضة، وطبقاته الغائرة.

أنتظره، ولا شيء غير ذلك.

شهر وراء شهر انتظرت حتى يئست مرة أخرى من عودته. فكرت بأن صديقي الفرنسي لم يكن دقيقاً في معلوماته تلك. ولهذا طلبته في الهاتف خاطبته بلوم:

- أيها الكاذب: لماذا أخبرتني بأن زوجي سيعود هذه الأيام؟

تعجب من نبرة صوتي العالية، وأسرع يدافع عن نفسه.

- لقد عاد. ألم تلتقي به بعد.

أغلقت سماعة الهاتف في وجهه. وبقيت محتارة ومرتبكة ومتسائلة: «أين هو الآن؟» و«لماذا لم يسأل عني حتى اللحظة؟».

* * *

أسئلة كثيرة طاردتني في تلك الليالي الأرقة، الباردة، الحزينة. مشاعر مختلطة ومتداخلة، ودقات قلبي أستمع لها كأنها أصوات طبول تصرخ في مغارات موحشة وظلماء.

كنت أحس بالنهاية، أو بدنوها المخيف، تقترب كجيش منتظم من النمل، مصطف وراء بعضه البعض. يتحرك وفق إيقاع خاص كمارش عسكري يزحف نحوي ببطء، يحملني فوق ظهره وينقلني لعالم آخر.

حالة الموت تسلقت جذوع روحي، وجعلتني أحس بشيء لا هو مفجع، ولا هو مُسكن. حالة من لاشيء، كوجع الماء عندما نصطدم به. كخفة أجسامنا على البحر، ونحن نغرق فيه.

كنت أصغي لنفسي وأنتظرها تفصح عن آخر الكلمات، وآخر التأملات، وآخر الأشياء التي ستحلم بها، أو لا تريد أن تحلم بها، الأشياء التي تريد أن تعيشها كخفقة حلم جميل فوق هذه الأرض اللعينة.

أستمع لها ولا أستمع.

فكان يمر على ذهني طيف عزيز السبع برائحة جسمه الترابية، برائحة روحه المشتهاة وبقلبه الفياض الذي ينكسر لأبسط قبلة، ويذبل لأول عاصفة تمزق الفؤاد.

كان يخطر على بالي، وأقول «ربما كان يرغب أن أسافر معه لكندا، ولهذا جاء يودعني»، فيما بقيت أنا صامتة، وغير مبالية، صامتة في مشاعري، ولامبالية في نظرتي الخارجية له. ربما كان يرغب في أن نتكئ على بعض، كل واحد يرمي بثقله على الآخر، ونهجر هذه البلاد بلا حلم عودة، ولا أي تفكير في الرجوع. لكنه لم يفصح، وأنا لم أفهم. تراه كان يرغب في ذلك حقاً؟ تراه كان

يريد مني أن أقول له أنا هذا الكلام، بدل أن يصارحني به هو؟ هل كان ذلك هو سر احتضانه لي، وتفجر دموعه في النهاية؟

بقيت محتارة. متقلبة، أؤكد شيئاً وأنفيه. أضعه محل احتمالات عديدة. محل شك وريبة. محل تساؤل. كنت متأكدة من أن الحقيقة لا وجه واحداً لها. أقول وأردد ثم أتذكر مسعود. الشخص الذي أشعر أن كل تحطمي الروحي كان بسببه، ولكن حتى هذه كنت أنفيه بسرعة، فما من أحد ضربني على يدي لأتزوج منه، وأعيش معه كل تلك الفترة من حياتي. لا أحد إلاي، قررت أن يكون ذلك فكان، والآن أجدني نادمة عليه فأندم. لقد ندمت على أشياء كثيرة قبل مسعود، لكن ربما كان وجهه هو أكثر ما يخلق بداخلي هذا التمزق والتناقض والحدة في المشاعر.

وجهه المستطيل، ونظرته القاسية جداً. فلسفته التي كان ينظر من خلالها إلى الحياة والبلد والعالم.

شعرت فجأة بأنني كنت أعيش مع رجل له أسطورته الخاصة وقوانينه المختلفة، وأنني لا أدري كيف وجدتني معه في عرينه. هل كان يحبني حقاً؟ هل أحببته بدوري حقاً؟ ماذا حدث لكلينا كي نتفارق بمثل هذه القسوة؟

هل تفارقنا طويلاً حتى أشعر بهذه الخيبة؟

سنتان وأربعة أشهر، لا رسالة ولا برقية، ولا حتى مكالمة هاتفية قصيرة يسأل فيها عني، ويعرف ما يجري لي!

ما هو الزمن في النهاية؟ الحياة كلها زمن. وقت نحسبه بالساعات والدقائق. لنترك داخلنا يقول العكس، لكن الزمن الحقيقي هو الساعات. لأنها تحسب، وتسحب من أعمارنا بالفعل.

ربما تمنيت أن يكون غيابه أبدياً، أو طويلاً بلا نهاية.

ربما دعوت السماء أن لا يعود.

ولعل هذا الخوف من عودته هو ما يخلق بداخلي كل هذا التوتر والقسوة الشديدة في مراجعة حساباتي مع نفسي والحياة.

لقد أكثرت من «ربما» هذه. وبشكل خاص أعرف أنها مجرد احتمالات لا غير، إلا أنها احتمالات مزعجة بالفعل.

* * *

كففت فجأة عن الانتظار. تركت الأمور تسير كما شاءت لها الأقدار أن تسير. شعرت في أعماقي باللامبالاة، وقلت إن كان من شيء سيحدث فهو أنني سأرحل عن هذه الحياة، وأن ذلك منذ لا أدري كم من السنين، لم يكن بالأمر المرعب، لا لم يكن مرعباً، ولا مثيراً بالمرة. وهكذا فضلت البقاء في حالة غيبوبة أعيش ليومي، وللحظات التي تعطيها لي صدف الحياة هذه.

كثيرا ما يخالج الإنسان هذا الشعور بالخسارة، ثم وهو يغمض عينيه لينام، أو ليستريح من كل ذلك، لينتقل بروحه من عالم، لعالم يداهمه ذلك الصفاء المذهل. ولقد خيل لي فجأة أن الأمور سارت بي في هذا الطريق المعوج، الحلزوني، المعقد من أجل إدراك ذلك الصفاء. في لحظة من الزمن لا بد أن تتوقف دقات الساعة في قلوبنا، وينطفئ الضوء، ثم بعدها لا شيء آخر غير أن نقبض على حقيقتنا الأخرى، ولكن ما هي؟ حتى هذا السؤال تركته جانباً، منذ صغري وأنا محتارة في علاقتي بما هو فوق، ولكن في زمن ما أهملت تلك الأسئلة، وأخرجتها من مساحة تفكيري. الآن، بقرب الموت، ربما يزداد هذا الإحساس بما بعد، كثافة وقدرة على تدمير الداخل، لكن مع كل ما يحمله

من حدة فهو لا يوترني، ولا يضعني في محك مع صفاء ذاتي الذي رحت أشعر به فجأة.

حينها.. حينما كففت عن انتظاره، حينما شعرت بتلك الحالة الغريبة من الهدوء الداخلي، جاءني مسعود. كان مع حارسين وقفا بالباب. رآني، تأملني جيداً ثم مد لي يديه، وضمني إليه، ضمني بقوة إلى صدره، وهمس لي كلمة لم أتصوره قط أنه يستطيع أن يقولها بتلك العذوبة وبذلك الصدق: «توحشتك».

تناقضات مسعود، جبروته، ضعفه، فرحه، ما يحمله من غموض وأسرار، أي شخص هو؟ وكيف لم أفعل أي شيء نحوه؟ لم أقل أي كلمة، ولا كلمة، بقيت مستسلمة له، وفي أحضانه أتلذذ بخوفي منه، أرتجف من برودته التي تربكني وتحيرني، بسخونته التي تحييني وتميتني، قلبه الصخري، الدم الذي يسيل فيه، لقد كنت ضحيته، كان شهرباري العذب، كنت له، له وحده، الآخرون لا يعنون لي أي شيء، هو الرجل الوحيد في العالم الذي يسكن ظلماتي تلك، وفي ذروة حقدي تسقط روحي، شجاعتي، قدراتي على نسفه من حياتي، لقد كان أقوى مني، أقوى بكثير، ولهذا لم يعد بداخلي أي شعور نحوه غير ذلك الاستسلام الأعمى لطغيانه.

* * *

شعرت بأن الأشياء لم تعد كما كانت عليه من قبل، والدنيا اصفرت واحمرت وصارت خضراء ثم زرقاء ثم في النهاية مالت للسواد، وقال مسعود بصوت مجروح:

- لقد تخلّوا عني مرة ثانية.

سألته عمن يتحدث، فقال دون أن ينتبه لي:

- لن يتغير أي شيء. دائما يوقعونني في المطب، وأنا وحدي من يريدونه أن يدفع الثمن.

وبقي هكذا يتحدث، وأنا بداخلي أتحدث أيضاً، كلمات وكلمات تخرج من فمه، أسئلة وهذيانات، وشعرت بأن العالم صار ضيقاً فجأة، كل العالم صار صغيراً للغاية، ولا يمكنني العيش فيه، ولم يسألني عما يحدث لي، وماذا يدور بداخلي من كلمات؟ كان في عالمه، وأنا في عالمي. كان متردداً في حسم الموقف، وفجأة رأيت في عينيه شرارات الرغبة المجنونة في الوقوف على سفح جبل، وترك جسمه يتزحلق، وروحه تصعد. هل كان مثلي يفكر في الموت؟ هل كان مثلي ينتظر ساعة خلاصه، إن كان في الموت خلاص ما؟ لم أكن متأكدة من أي شيء، لا مما أنا فيه، ولا مما هو فيه. فقط حدس، شعور غير واضح، هزة نفسية مباغتة، ودوران في سهل شاسع، ولكن ضيق في آن.

بقينا ننظر لبعضنا بتفاهم عجيب، ضمني إليه، وقال لي «أحبك»، ولم أفهم إن كنت سمعتها بشكل جيد أم إن الكلمة خطرت ببالي هكذا، تصريح مفاجئ وغريب، لكني شعرت بأنه حقيقي، لقد وجد شيئاً ما فيّ، يا للبلاهة، كل الناس تبحث عمن تحبه في لحظة كهذه، وبعدها لا يهم الطوفان، أو القيامة، التدمير أم البقاء على قيد الحياة من دون أنفة أو كرامة. لا أعرف، لست مسؤولة عما يشعر به نحوي، وبالنسبة لي أحبه أنا أيضاً لأن فيه شيئاً من السواد الذي بداخلي، كل ما في الأمر هو أنه تربى بشكل آخر، وأنا كبرت بمنطق آخر. كل ما في الحكاية أنه ينتمي لطينة تظن أنها من أجل ما تريد يمكن فعل أي شيء، أما أنا

فمرة أفعل، ومرة أتراجع، ولكن ما الفرق بيننا في النهاية؟ ليس من فرق، ولست أبحث عنه. إنني محطمة بما يكفي لكي لا أحث، ولا أجد.

* * *

أخبرني مسعود أنه سيسافر مرة أخرى (دون أن يذكر لي المكان الذي سيرحل إليه) ولكن بمجرد عودته سيعود كل شيء إلى وضعه الطبيعي، كل شيء تقريباً، وأننا لن نفترق بعدها، قالها مصمماً، وبقيت أنا جامدة في مكاني، حياتي متوقفة في لحظات طفت من زمن بعيد، ولم تتحرك بعد، لم تتحرك إلى أي مكان، نظراتي شاردة فيه، أو يخيل إليّ أنها شاردة فيه، ردد الكلمات ذاتها، وخرج مع حراسه الشخصيين..

بقيت في البيت، محجوزة في غرفتي لا أرى أي بصيص نور، الظلام يلفني من كل جهة، وبدت لي حياتي من قبل تمثيلية سخيفة، وشعرت ببركان يرغب في الانفجار، لكني كتمته، وبقيت أحلم بشيء آخر، بضوء ما يأتي من بعيد، برائحة جميلة أشمها، وتنعشني، وتعيد لي خيط الحياة الذي تقطّع. سر الوجود الذي لم أعد أمتلك نشوته فجأة.

هل أستطيع أن أقول إنني عشت في الليل، في الليل فقط، في وحدة الليل، في عرائه، في صخبه وفوضاه، في جنونه وعربدته، في سواده ولمعان أضواءه، في بخوره وحرائقه، في ضجيج الحانات، والصالات المشتعلة بالأجساد، كل الأجساد، في ضجيج النفوس التي تدخل باحثة عن شيء، وتخرج غير متأكدة من أنها كانت تبحث بالفعل، أو متأكدة من أن ضجيج الفوضى والنشوة قد أطار كل ذلك فتبخر في غابة من المنسيات التي لن تعود إلا في الغد. الغد المخيف والقاتل.

في الليل..

أعرف معنى ذلك، ربما لست بحاجة لخريطة ترسم لي طريقه، أو تهديني في متاهاته، أو لعل خريطة واحدة لا تكفي لكي تهدي أحدا إليه. لا يوجد خرائط في الليل بالرغم من أن الدليل الروحي يقول إن كل خريطة ستقود إلى غيرها، في الليل توجد اللحظة الأكثر جبروتاً وقسوة، اللحظة الأكثر صفاء ودهشة، وتوجد الذاكرة المنهكة والمتعبة والباحثة عن جرعات الغياب، ونسمة النسيان العذبة.

كنت أبحث في أعماقي عما هو ليلي فيّ، ولم أتصور أنه ليل طويل بلانهاية، وأن الحياة أحياناً لا تدلنا إلا عليه. هو لا غير، بسواده وخفته وهيامه وهذيانه وملذاته ورعبه وشره وخيره، وكل ما يجتمع فيه من تناقضات تنصهر لكي تصبح جزءاً من تلك

السيمفونية الغريبة التي تلحن تحت مطر غزير، وفي ليلة باردة، وبأوتار تجرح برقتها كل من يقترب منها. وأنا من اقتربت أكثر، ولهذا ربما جرحت في صميم علاقتي بنفسي وبالعالم.

ربما لم ينته أي شيء

ربما انتهي كل شيء

أتصور أنه الليل: خطير بما يكفي لكي يقود إلى الهاوية. تلك اللحظة التي ينزلق فيها الجسد في بحار مظلمة، يشعر وكأنه استسلم أخيراً لطمأنينة قدرية، لشيء يستعصي على القبض، للحظة هي افتراق وابتعاد، دنو وتوحد، لشيء يمتزج فيه النور بالظلام، والحق بالباطل. ما تصورت أنني سأصل فجأة إلى تلك الحافة. هنا فقط قد أستريح، أخلع عني كل تلك الثياب، وأغرق بنفسي في لجة مخيفة ومظلمة، مستسلمة لنعومة يد العدم التي ستطوقني من كل جهة، وقد أعلنت نهايتي حتماً.

لقد أخلصت للشيء الأسود بداخلي، وها أنا أنتظر فراغاً كبيراً يحتويني، جهة ما استسلم لها، رائحة تقودني لشيء آخر، غير أن روحي كانت تذبل، وقلبي يفزع أكثر فأكثر، ولم أكن أعرف لأول مرة طريقي.

بدت لي الحياة غامضة، لغزاً مبهماً، سرّاً عليلاً، أمراً لا يشرح، نعيشه فقط ثم نرحل، ونحن على ما كنا عليه من قبل بنفس الشغف، بنفس الرغبة المدمرة في تحقيق كل شيء، ثم يقابلنا الجحود، اليأس، الغرور أحياناً، الانزلاقات والعثرات، السقوط والنهوض، نرفع رأسنا ونبكي، نذرف دموعاً تشبه الماء، تشبه الذي لا شبيه له، الشفافية فجأة، الصدق مع الذات، والحياة تهرب كأنها أوراق صفراء ذابلة تأخذها رياح الشتاء بعيداً.

لم أكن قط قدرية في تفكيري. كنت أردد: أنا ما صنعته يداي، أنا إرادة حرة، كنت أشعر بأنني لست ملزمة كغيري بأن استسلم لإرادات أكبر، ولم أتصور كما اللحظة أن ينتعش بداخلي شيء من هذا القبيل، أهي الحسرة؟ ندم قاتل؟ روح مرتابة حتى بما كانت متيقنة منه؟ أشياء كهذه تخطفك وترميك في سحيق الألم، وتتذكر، وتصبح كل ذكرى وجعاً شرساً، صورة قلقة ومريبة، تصبح الذاكرة وطنا للأحلام المجهضة، للأشياء التي لم تحدث قط، لما كان يرجى حدوثه، الأحلام الصغيرة الأولى، الذكريات البسيطة التي من فرط بساطتها تتحول لأحلام غامضة.

بدأت الكوابيس تفزعني ليلا، ورحت أشعر بتفككي النهائي، بأمراضي وعللي، كنت أريد أن أعثر على شخص يحرسني من تلك الكوابيس، أرغب في وجه ملائكي يقف على العتبة بين الحلم والكوابيس، يمنع دخولها عليَّ. في النهار كانت قوتي تنهار، أعرق، أتبلل كثيراً بذلك العرق البارد، لم تكن حمى، بل مخاوف، أحاسيس مختلطة، انتباهاً مفرطاً، مفرط للغاية، التذكر حالة مستديمة ودنو للأجل، ارتياب من الحقيقة، ضغط دم مرتفع، هوس روحي، جنون ميتافيزيقي، تحاور غريب بين أشباح الماضي والحاضر.

الخوف شلني، مسعود استطاع أن ينقل لي كل ذلك الشر والرعب في الآن ذاته، الخوف منه، انتظار أن يضع حداً لحياتي، كما لو أنه سيقتلني في أي لحظة. وكان جنون الانتظار قد بلغ مداه، الرعب، سلطة الرعب المكهربة للجسد، والقاتلة لأي شيء ينبض. كنت أنتظر خلاصي على يديه، يديه الخشنتين، الغليظتين، يديه القاتلتين، يديه وتاريخها الدموي، أنتظر خلاصي على هاتين

اليدين، كل عروقي تنبض بدمي الذي سيتدفق، بأي شكل سيقتلني؟ سأكون جزءاً من تاريخه نفسه، علاقات الدم، القتل والدم، سفك رقبتي فدية للاشيء، للعدم والجنون، للذاكرة المثخنة بالرماد، لعفونة زمن الحرب والكوابيس، أموت بيديه، على يديه، أموت ويداي تستسلمان بغير مقاومة لموت يأتي منه.

أنتظره يقتلني. موعدي مع الموت، يد تسكن هذه اللحظة، ويد قفزت بكل ما فيها من روح لتقبض على السماء.

كوابيس القتل، الرعب، الشناعة، الانتظار والتفسخ العظيم، كلها تسكن هنا، لاشيء قبل، لاشيء بعد، كلها في لحظة ممزوجة بالدم، لونه الأحمر القاني الذي يتدفق، حتماً سيتدفق، سيسيل كوديان جارفة، وسيلطخ كل الأرض، وينسف روحها لمرة واحدة وللأبد.

أنتظره يقتلني، أنتظر نفسي أموت، وفي ذلك الانتظار المخلخل، الموجع تحرمني الكوابيس من النوم، الكوابيس الشنيعة التي ترفرف بأجنحة سوداء تشبه أجنحة الليل والظلمات الغامقة، تشبه العدم المخيف والكئيب للوحدة، تشبهني تمام الشبه، وتضعني فجأة في صورتي الأخيرة كشجرة تذبل كورقة تصفر وتسقط، كحلم قديم، رث، تأخر جداً عن موعده، ولم يعد ممكناً، لا كبقايا أطلال يتكئ عليها الفرد المكسور، ولا كحقيقة تتحقق في أرض الواقع. إنني أنتظر موتي، ويداه تقتلاني، خلاصي مرتبط بتاريخه الدموي، وبتاريخي الليلي، بجرح العلاقة غير المكتملة، أو التي اكتملت في السواد، وعلى أرض الخراب هذه. نعوشنا فوق رؤوسنا، الموت خلاص، أما الروح فماتت، هلكت، لم يبق منها شيء، أي شيء إلا هذا الذوبان المرير في

استرجاع القلق والارتياب العنيف من الحياة.

أنتظره يقتلني وأموت، وفي الانتظار تشكلت ملامح وجهي في الصورة، رأيت سواد الليل، وظلمة الحقيقة، كهف نفسي، تعاسة القدر، وجبروت الذكرى، رأيت نفسي على حقيقتها، تلك التي لا تبصر إلا وقت وداعها للعالم، ودعت العالم في نفسي، ونفسي في العالم، ودعت الأشياء التي مضت، والأحلام التي بزغت وخسفت، الأرض التي احترقت، الدم الأحمر الذي سال، يداه القويتان وهما تخنقاني، تقتلاني، وأنا أصرخ بأعلى صوتي، لا خائفة من الموت، ولا مرتابة من الشر الذي يحدث لي، لا قلقة ولا منزعجة، أصرخ مودعة الحياة التي عشتها بوجهين، الليل الشاعري المبهم، الحنين والرغبات التي تحققت وتلك التي بقيت معلقة. أموت واصرخ لا خائفة ولا مرتجفة، فقط أنادي من أحببت ومن كرهت، من رأيت ومن لم أرى، أنادي الجميع، اصرخ بصوت عال للغاية وداعاً وداعاً أيتها الحياة، أيتها الأرض الخراب، وداعاً أيتها الحرب، الموت، القتل، الجنون، التوحش، الذكريات والأحلام، وداعاً.. وداعاً، لن أعود لك ثانية، سيبتلعني العدم بعد قليل، وسأرحل مرتاحة، وقد قتلني بيديه السامتين، الخشنتين، الغليظتين، لقد قتلني لأنه لا بد من قتلي، ولا بد من رحيلي، لا بد أن تنتهي حياتي هكذا بهذه القسوة المتوحشة، وبمنطق القتل المتعمد من طرف تاريخ رجل عاش في الظلام الدامس ممزوجاً بالدم.. ولكن وأنا أنتظره يقتلني، قتلته أنا! يا للكارثة بدل أن يخلصني خلصته أنا، بدل أن يريحني أرحته أنا، قتلته في وحدتي تلك، في كوابيس الانتظار والخشية والرعب، قتلته أنا ليليا عياش، وليشهد الجميع أنني

فعلتها، وأنني أنا الذي أمسكت سكين المطبخ ليلا، وأغمدته في قلبه، أنا الذي قتلته ليلا، وهو نائم، ورآني عندما طعنته، قتلته، ولم يقل أي شيء، لم يقل أي كلمة، فقط الصمت، وعيناه الغامقتان الغامضتان تنظران في السقف، في اللاشيء، في عدم ما، في دائرة حاصرته كما حاصرتني. قتلته لأقتل الأصوات، لأشعر بالراحة التي كنت أتمناها على يديه ولم أشعر بها قط، نار أكلتني من الداخل وقلبي تمرع في هوس الألم المجنون، ودمه سال على جسدي ولطخ السرير، قتلته بخوف وحب وخشية، قتلته ودمه سال وتدفق مثلما رأيت دمي يسيل ويتدفق في تلك الكوابيس المزعجة، في ليالي وحدتي وانتظاري وأرقي.

مات مسعود، قتلته بيدي، خلصته، ولم يخلصني، نظرته ذابت في السماء، واستسلم للموت بشجاعة، روحه صعدت، أما روحي فنزلت، ورأيت عينيه لاصقتين بالسقف، وشيء مني يلتصق به ويبكي عليه ويصرخ محتجاً على كل ما حدث بيننا، وما لم يحدث.

بكيت طويلاً عليه. جثته أمامي، وروحه ذهبت إلى مكان آخر، تركته في الغرفة بعدها، نتنت جثته، لم أعرف ماذا أفعل بها؟ لم يسأل عنه أحد، لم أطلب أحداً ليأتي إلي، ولم يحدث شيء، أشخاص حضروا بعدها، ظننتهم سيعتقلونني، ويقتلوني، ولكن لاشيء من هذا حدث، الجميع صمت، تركوني لآلامي الروحية، لقلقي النفسي، لجبروت الظلام الذي راح يغزوني من الداخل، ويلوث كل ما فيّ من نقاط بيضاء، من مناطق صافية.

انطفأت، ورأيتني أموت ميتة مميتة، وكلما متّ يخرج هو من كوابيسي، يحمل لي شمعة أخرى، ويضيء عتمتي.

لقد أخذني الوقت، لم يقتلوني، لم يحاكموني، شاهدت جنازته في التلفزيون، وتحدثوا عن رجل بارع، فذ، مخلص وحقيقي، وقالوا أنه مات بسكتة قلبية من فرط انشغالاته بالعمل على مساعدة البلد كي يخرج من المحنة.

لم يعتقلوني، لم يقتلوني، بقيت لعزلتي أموت فيها، لكآبتي الليلية أُقتل بداخلها، فقدت كل شيء، طعم الحياة والوجود والأشياء المحيطة بي.

صرت لا أعرف كيف هي دنياي، جسدي غرق في ليله الطويل، وبحره الصامت، ولعنات قديمة تطارد كل شبر فيه، بأي شيء أقاوم؟، ظننت أنني سأفرج عن ليلي بالكلمات، وها هي الكلمات تزيد من حرائقي، جلد عنيف للذات، سلخ متعمد للجسد والروح، لحم مشوي يتبخر رماده مثل جثة أحرقت كي لا تنقل الوباء.

الوباء فيّ، وسأصرخ بأعلى صوتي كنشيد حلم ميت: توقفي أيتها الكوابيس. لقد طعنني اليأس بقوة. إن دمي يسيل، وروحي تنزف.

خرائط لشهوة الليل

رواية

بشير مفتي

• كاتب من الجزائر

... غير أنك تعرف أن الأشياء في الحياة هي ليست دائما الوقائع التي نتلمسها بحواسنا الخمس، بل هي الأوهام والأحلام أيضاً. أظن أنني كنت مدفوعة بروح شيطانية تلبستني منذ الصغر، ولهذا غرقت في أوهامي وأحلامي وتركتها تقودني إلى حيث تريدني هي لا إلى حيث ما أرغب أنا. بقيت مستكينة لخيط القدر، وفوضى الصدف، وعبث التاريخ، أو الحياة أو سمها ما شئت من الإرادات الكبرى التي تتحكم في سيرنا هذا بداخل هذه المادة الكبيرة التي تسمى الأرض. نعم تركت أمر نفسي للأهواء والأخطاء. كثيراً ما شعرت بقيمتها في حياتي. ركنت لبعض الحب، وبعض اللحظات الآسرة بالشوق والحنان، والتي فتحت لي عبر مساري هذا طرقاً كثيرة واسعة وممتدة. شعرت بأنني أختزن في روحي تجارب كبيرة، وحيوات عدة، وأنني كنت أقدر لو فقط تلمست طريقي بيدي أن أبلغ ذروة ما عميقة فيّ، لحظة سحرية خاصة بي، غير أن كل شيء كان يقود إلى نقيضه. حركاتي الإيجابية كانت ترتطم بشيء أسود في، وتموت بسرعة، مندغمة في جرح غائر وهاوية عميقة، فتسقط أو أشعر بها أنها تسقط راكضة نحو فنائها التعيس ذاك.

بشير مفتي روائي ولد عام 1969 بالجزائر العاصمة صدر له العديد من الروايات من بينها «أرخبيل الذباب» و«شاهد العتمة»، منشورات البرزخ. «بخور السراب» و«أشجار القيامة»، منشورات الاختلاف والدار العربية للعلوم ناشرون. ترجمت بعض أعماله إلى الفرنسية والإيطالية.

• صدر للكاتب أيضاً:

ISBN 978-9953-87-292-6

9 789953 872926

منشورات الاختلاف
revueikhtilef@hotmail.com

مكتبة مدبولي
Madbouly Bookshop
info@madboulybooks.com

الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.
www.asp.com.lb - www.aspbooks.com

جميع كتبنا متوفرة على شبكة الإنترنت في نيل وفرات.كوم www.neelwafurat.com